جامعة محمد خيضر بسكرة
كليّة العلوم الإنسانيّة والإجتماعيّة
قسم العلوم الإجتماعيّة

مذكرة ماستر

ميدان العلوم الإجتماعية

شعبة الفلسفة

تخصص فلسفة عامة

رقم: أدخل رقم تسلسل المذكرة

إعداد الطالب:
صفاء سلامي

يوم:27/06/2022

إبستيمولوجيا التعدديّة المنهجيّة عند بول فيرابند

لجنة المناقشة:

محمد زيان	أ. مح ب	جامعة محمد خيضر بسكرة	رئيسا
جمال الدين بن سليمان	أ. د.	جامعة محمد خيضر بسكرة	مشرفا ومقررا
علي تتيات	أ.د.	جامعة محمد خيضر بسكرة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية:2021 - 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكر والعرفان

الحمد والشكر لك ربي على أن وفقتني لإتمام هذا العمل والصلاة والسّلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:

أتقدم بخالص عبارات التقدير والإحترام الى قدوتي ومثلي الأعلى أستاذي الفاضل " جمال الدين بن سليمان" فلم يبخل علي سواءا بالعمل، أو الكلمة الطيبة إذ تفضّل بمنحي شرف التلمذة على يده، وقبول الإشراف على هذا العمل المتواضع فله مني جزيل الشكر وجميل العرفان.

ولا يفوتني بالذكر أن أشكر أستاذتي الكريمة "درّاجي فردوس" فلقد كانت لي نعم السند والموجه ولها الفضل فيما أنا عليه اليوم، لها جزيل الشكر وخالص المحبّة والتقدير.

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لأساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة لتفضلهم بمناقشة هذه الرسالة، وإغنائنا بالملاحضات القيمة والتوجيهات السديدة وأقدّم شكري مكللاً بعبارات المحبّة والتقدير لصديقتي وأختي "شماء" جزاها الله خيرا، ووفقها في دروب الحياة.

وأتقدّم بالشكر الأعظم لوالديا اللذان تعبا من أجل أن يراني على ما أنا عليه الآن

الإهداء

إلى من أنار لي درب العلم والمعرفة، الى الرجل الأعظم في حياتي الذي خطت الحياة تعاريج فوق جبينه، فكانت زادا عزيمتي وتصميمي، إلى أبي وأمي غاليتي وبهجتي وجنتي على الأرض أهديهما ثمرة غرسهما عرفانا منّي بفضلهما الجميل علي، فجزاهما الله عني خير الجزاء وحفضهما لي، وأدام عليهما الصحة والعافية.

الى الروح الطاهرة التي توفتها المنية ولا تزال حية في قلبي، الى روح جدي الراحل "سلاّمي السلمي" أهديه هذا النجاح، وأنا كلي يقين بأنه يراني ويفتخر بي، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

إلى أحبتي وسندي في الحياة أخواي العزيزان نور الهدى، وجمال الدين أهديهما ثمرة جهدي وهذا النجاح ولهم مني بالغ العرفان وخالص المحبة وصادق الدعاء.

دون أن أنسى شقيقات القلب ورفيقات الدرب جواهري الثمينة شماء، ورجاء وإيمان أهدي لهم هذا النجاح مع كامل تحياتي ومحبتي.

وإلى كل الاقارب والأحبة، إلى كل من علمني حرفا أهدي هذا العمل.

فهرس المحتويات

المحتويات رقم الصفحة

مقدّمة.....أ_ هـ

الفصل الأوّل: مدخل إلى إبستيمولوجيا المنهج.

المبحث الأول: تاريخية الإبستيمولوجيا.....- 9 -

المبحث الثاني: المنهجية بين الوحدة والتعدد.....- 16 -

المبحث الثالث: التطور الفكري لبول فيرابند.....- 28 -

الفصل الثاني: منطلقات الفلسفة التعددية المنهجية لبول فيرابند.

المبحث الأول: نقد بول فيرابند للعقلانية العلمية المعاصر

1) نقد العقلانية التجريبية "الوضعية المنطقية".....- 34 -

2) نقد العقلانية النقدية "كارل بوبر".....- 37 -

3) نقد العقلانية المؤسساتية "توماس كون".....- 39 -

4) نقد العقلانية الميتودولوجية "إمري لاكاتوس".....- 42 -

المبحث الثاني: الأسس الإبستيمولوجية للاعقلانية العلمية عند فيرابند.....- 45 -

1) إشكالية العلاقة بين العلم واللاعقلانية.....- 45 -

2) مفهوم النظرية العلمية عند فيرابند.....- 47 -

3) مبادئ النظرية العلمية عند فيرابند.....- 49 -

المبحث الثالث: الفوضوية الإبستيمولوجية ودورها في تطور العلم.....- 52 -

1) مفهوم الفوضوية الإبيستيمولوجية عند فيرابند.....- 52 -

2) مفهوم النسبية عند فيرابند.....- 54 -

3) ضد أحادية المنهج.....– 57 –

الفصل الثاني: منطلقات الفلسفة التعدديّة المنهجيّة عند بول فيرابند.

المبحث الأول: العلم باعتباره تقليد.....**– 64 –**

المبحث الثاني: التعدد المعرفي "الفن، الدين، الأسطورة" ودورها في بناء العلم.....**– 68 –**

المبحث الثالث: رؤية تقييمية ونقدية لإبستيمولوجيا بول فيرابند.....**– 73 –**

خاتمة.....**– 78 –**

قائمة المصادر والمراجع.....**– 82 –**

مقدمة

مقدّمة:

لقد أعتبر العلم لقرون عديدة أرقى أشكال المعرفة الإنسانيّة لما يتميّز به من موضوعيّة للحقائق والنظريّات العلميّة، إلى جانب إعتماده على المنهج كركيزة أساسيّة وراء نجاح أي نشاط علمي، وبفضله أثبت العلم قدرته على التنبّأ والتفسير لمختلف الظواهر العلميّة، كونه الإطار الذي تنتظم وفقه المعارف، والأداة التي تمكّن فيلسوف العلم من إكتشاف حقائق جديدة، مع تبريرها علميّا، ووفقًا لهذا أصبح العلماء يعتقدون بموضوعيّة العلم الذي لا ينفذ إليه الشك، حيث أصبحت النظريّات العلميّة تستخلص إنطلاقًا من ما تمدّه الملاحظات والتّجارب العلميّة، إلاّ أنّ هذا التقدّم والتّميّز الذي شهده العلم لم يدم طويلاً، إذ ظهرت أزمات وقطائع إبستيمولوجيّة داخل سياق النظريّات العلميّة ذاتها، أثبتت عجز العقلانيّة العلميّة ومحدوديّتها التفسيريّة، ونتج عن هذه الأزمات تغيّرات بسبب عجز العلم عن تفسير الكثير من الوقائع بطريقة عقليّة، وعدم قدرته على دراسة بعض المسائل التي لاتزال مستعصيّة الحل.

إنّ هذه التغيرات التي عرفها العلم، وما أحدثته من إنعكاسات على الإنسان والمجتمع والبيئة، شكّلت إحدى الإهتمامات الرّئيسيّة في إبستيمولوجيا العلم المعاصرة، ممّا أدّى إلى ظهور حركة فكريّة طرحت تساؤلات حول ماهيّة العلم وطرق عمله، وطبيعة المناهج المتّبعة فيه ومشروعيّة النتائج المتوصّلة إليها، حيث أضهرت زيف المشروع العلمي المنهجي، وإمكانيّة الشك في قيمته، بسبب الصعوبات التي إعترضت سبيله، وتفاقم هذا الشّك ممّا جعل الباحثين يتساؤلون من جديد عن مّا إذا كان العلم يتّبع منهجًا واحدًا، أو يقوم على عدّة مناهج.

إنّ هذه التساؤلات الإبستيمولوجيّة حول المنهج لم تكتفي بالوصف والتبرير والكشف فقط، بل النقد كذلك، ممّا جعل العقل المعاصر يعيد صياغة العديد من المبادئ والأسس، والمفاهيم، التي ظلّت لقرون مهيمنة على العلم، وتعدّ من المسلّمات التي لاتقبل الشّك، وكان مفهوم المنهج أشدّ عرضة لهذه المراجعة النقديّة، وبفضل تزعزع هذه الأسس العلميّة لم يعد السياق العلمي يتّسم بتلك الرسميّة، والصّرامة على حساب السياقات الأخرى، وظهر الشك في الحقائق التي تدّعي الموضوعيّة والعلميّة، ولقد أحدثت التحوّلات الجذريّة التي شهدتها إبستيمولوجيا

العلم المعاصرة منعطفًا حاسمًا في الفكر العلمي، حيث تحوّل الإهتمام من دراسة العلم كنظام ونسق مغلق غير متفاعل مع أنماط التفكير الإنساني، إلى دراسته من حيث نموه وتفاعله مع نشاطات وبنيات معرفيّة إنسانيّة أخرى، كالفن والدّين والأسطورة، هذا ماولّد تصوّرا جديدًا للعلم، كشفت عنه العديد من الممارسات الإبستيمولوجيّة ومعظم إتّجاهات مابعد الحداثة، التي تعرف بالإتّجاهات النسبيّة واللاعقلانيّة، المتيمّزة بنقدها لكل التصوّرات التي تقوم عليها العقلانيّات العلميّة المعاصرة، كالموضوعيّة والثّبات ووحدة المنهج.

وكان الفيلسوف المعاصر "بول فيرابند" **Paul Feyerabend (1924_1994)** يمثّل نموذجًا لهذه المراجعة النقديّة للمنهج العلمي، بتقويضه لكلّ ما هو مطلق في العلم، ورفضه لوحدانيّة المنهج، مشيدًا بشعار "كل شيء جائز ومقبول"، الذي يمثّل العامل الأساسي للتقدّم العلمي، رافضًا به كل التوجّهات الإبستيمولوجيّة والمتيودولوجيّات المتداولة، حيث يقف ضد النزعة التجريبية الاستقرائية، وضد العقلانية النقدية والمقاربات الابستيمولوجية المعاصرة له، ثائرا بذلك على كل محاولة تهدف إلى عقلنة الممارسة العلميّة، ومؤكّدًا على أنّه ضد النمطيّة الأحاديّة، وضد الثبات المنهجي والموضوعيّة، مؤسسّا في مقابل ذلك لتصوّرات جديدة كمفهوم التعدّدية المنهجيّة والفوضويّة الإبستيمولوجيّة، وبهذا أصبحت هذه المفاهيم تمثّل المسلّمات الأساسيّة التي تقوم عليها توجهات العلم المعاصر.

الإشكاليّة:

وعلى هذا الأساس يمكن صياغة الإشكاليّة المحوريّة لهذا البحث في التساؤل التالي:

_ ما الأسس التي تقوم عليها المقاربة الإبستيمولوجيّة للتعدّديّة المنهجيّة عند بول فيرابند؟ وهل هذا الطرح الإبستيمولوجي أفاد تقدّم العلم؟.

حيث يمكن معالجة هذه الإشكاليّة إنطلاقًا من الإجابة عن الأسئلة التاليّة التي تلخّص أهم النقاط التي يتطلّب البحث المرور بها موضوعًا ومنهجًا فنجد:

- هل نقد فيرابند لمفهوم العقلانيّة كما يوحي في كتاباته "ثلاث محاورات في المعرفة"، "العلم في المجتمع الحر"، "ضد المنهج" هو إسقاط لقيمة العقلانيّة والتفكير العقلاني أم أنّها دعوة لتأسيس لاعقلانيّة جديدة تعبّر عن توجّه فلسفي أكثر تفتّحا وإنسانيّة؟.
- هل رفضه للمبادئ التي يقوم عليها المنهج العلمي ودعوته إلى اللامنهج تعني أنّه ينفي المنهج مطلقًا ويؤسّس لإبستيمولوجيا علميّة جديدة تقوم على الفوضويّة والتعدّديّة المنهجيّة؟.
- هل إستطاعت إبستيمولوجيا التعدّدية المنهجيّة إضفاء قيمة جديدة للعلم في ظل التمثّلات الإنسانيّة؟.

المنهج:

ولمعاجة هذه الإشكاليّة والإجابة عنها إعتمدت على مجموعة من المناهج تبعًا لطبيعة القضايا المعالجة، ففي تناولي لمفهوم الإبستيمولوجيا وتطوّرها عبر تاريخ العلم استخدمت المنهج التاريخي، فلا يمكن إستيعاب هذا المفهوم إلاّ بالعودة إلى جذوره الفلسفيّة والعلميّة.

كما إعتمدت على المنهج التحليلي النقدي في دراستي للمفاهيم والتّصوّرات التي قامت عليها مختلف التّوجّهات الإبستيمولوجيّة المعاصرة، من خلال إرجاعها إلى الأسس والمفاهيم التي تنطلق منها، والتحليل يكون وفق وجهة نظر تحليليّة نقديّة.

وأيضًا إستخدمت المنهج النقدي المقارن في إبراز موقف فيرابند من المقاربات الإبستيمولوجيّة المعاصرة له.

أسباب إختيار الموضوع:

كانت الأسباب الموضوعيّة أكثر دافعيّة لإختيار الموضوع، وذلك من ناحية أن الطرح الإبستيموجي الذي أتي به فيرابند متميّز الأفكار، ثائر على كل النظريّات العقلانيّة العلميّة السّابقة، وهذا ما كان وراء رغبتي في إختار هذا الموضوع وجعله محلّ دراسة، لخروجه عن كلّ ماهو مألوف في الدراسات الإبستيمولوجيّة المعاصرة، ومناقشته لمسائل قد أُعتقد أنّه تم

الفصل فيها لبداهتها ووضوحها كقضيّة المنهج والعقلانيّة، مثيرًا بذلك لقضايا جديدة تجعل من الأسطورة والدين والفن تحظى بنفس الأهميّة التي تحتلّها الدراسات العلميّة.

الأسباب الذاتيّة:

هو نتيجة ميول إتّجاه هذا النوع من الأبحاث والمواضيع المعاصرة، التي تناقش قضايا العلم، فالأفكار التي طرحها هذا التوجّه الإبستيمولوجي، تجعل الباحث الذي يقوم بالدّراسة أو القارئ مستمتع أثناء البحث والقراءة، كما أنّه يفيد المتلقّي لما يحمله من أفكار علميّة مطروحة بطريقة لم يسبق أن تم تناولها من قبل، تثري مجاله الفكري خاصّة للمهتمّين بفلسفة العلم.

إضافة إلى أن هذا الموضوع الذي تطرّقت إلى البحث فيه غير متناول بكثرة في مجال الدّراسات الأكاديميّة والأبحاث العلميّة.

أهداف الدراسة:

تكمن أهداف هذه الدراسة في محاولة إظهار توجّه فلسفي نقدي جديد ، من أولويّاته الدّفاع عن حريّة الإنسان وإبداعه، له رؤية متميّزة في إبستيمولوجيا العلم، التي لم تحظى بقدر كافي من الدراسة في النقاشات والخطابات العلميّة والفلسفيّة، إذ لايمكن تجاهل هكذا طرح إبستيمولوجي فيما يفيد به من تقدّم للبحث العلمي.

الصعوبات:

لا تخلو أي محاولة في البحث العلمي من الصعوبات، فلقد كانت فلسفة فيرابند لما تحمله من مواقف متناقضة، فمن جهة يهاجم فكرة العقلانيّة، والمنهج العلمي، ومن جهة أخرى يدافع عن الفوضويّة واللاعقلانيّة ويضع أنماط التفكير الإنساني كالأسطورة والتنجيم في مرتبة العلم، وهذا من الصعب أن يتقبّله باحث مبتدئ يبحث عن المعرفة من منطلق عقلاني.

كما أنّ موقفه الرافض لأحاديّة المنهج ومناهضته ضد النظريّات العقلانيّة العلميّة جعلت الدراسات حول الموضوع قليلة، فمعضم أفكاره لم تحظى بالدّراسة الكافية لخطورة مواقفه المنتقدة للعلم ومنهجه، ونتيجة لهذا واجهت صعوبة في قلّة المصادر خاصة بالّغة العربيّة، حيث ترجم عدد قليل منها، "طغيان العلم"، "العلم في المجتمع الحر"، و"ثلاث محاورات في المعرفة".

خطّة البحث:

بعد هذه اللّمحة حول موضوع البحث نأتي هنا إلى النّظر داخله، ومحاولة تقديمه بتلخيص مضمونه، فقد جاء البحث في ثلاث فصول، تتضمّن كلّ منها أبحاث يمكن شرح موضوعاتها كما يلي:

كانت البداية بمقدّمة التي إشتملت على الإطار العام للموضوع، مع طرح الإشكاليّة.

وفي الفصل الأوّل الذي يحمل عنوان "مدخل إلى إبستيمولوجيا المنهج" حاولت التعرّض لمفهوم الإبستيمولوجيا وتتبّع أصولها التّاريخيّة، ثمّ تطرقت إلى السّؤال عن المنهج وما إذا كان يقوم على الوحدة أو التّعدّد، مع ذكر التطوّر الفكري لبول فيرابند.

أمّا الفصل الثاني عنوانه "منطلقات الفلسفة التعدّديّة المنهجيّة لبول فيرابند" حاولت فيه إبراز موقفه النقدي من المقاربات الأبستيمولوجيّة المعاصرة له، كما توجّهت لعرض أهم الأسس التي أقام عليها فيرابند أطروحته في دحض قيمة العلم ومنهجه، وأبرزت دور الإبستيمولوجيا الفوضويّة في تقدّم العلم.

وتطرّقت في الفصل الثالث والأخير المعنون ب"الأبعاد الإبستيمولوجيّة لفلسفة بول فيرابند" إلى عجز العلم عن تفسير الحقائق وتبرير الوقائع العلميّة، وأثبت في مقابل ذلك دور التّعدّد المعرفي "الفن والدين والأسطورة" في بناء العلم، كما إرتأيت إل تقديم رؤية تقييميّة ونقديّة لأبستيمولوجيا فيرابند.

وكانت خاتمة البحث بمثابة نتائج للموضوع محل الدراسة.

الفصل الأوّل: مدخل إلى إبستيمولوجيا المنهج.

المبحث الأوّل: تاريخيّة الإبستيمولجيا.

المبحث الثاني: المنهجيّة بين الوحدة والتّعدّد.

1) مفهوم المنهج.

2) وحدة المنهج.

3) التعدديّة المنهجيّة.

المبحث الثالث: التطوّر الفكري لبول فيرابند.

لقد أفرزت فلسفة العلم المعاصرة إتجاهات عديدة إتخذت من النقد وسيلة لكشف التناقضات والإيديولوجيات القابعة خلف مقولات ونظريات ومناهج فلسفة العلم الحديثة، ولقد أعاد بعض فلاسفة العلم المعاصر النظر في هذه الفلسفة التي سعت إلى تبرير بعض التصورات والمفاهيم المعرفية التي كانت تسيطر على العلم لمدى قرون مديدة، بوصفها مفاهيم ثابتة ومبادئ مطلقة كالعقلانية والموضوعية والصدق، حيث أدرك هؤلاء الفلاسفة وأولهم الفيلسوف "بول فيرابند" الذي بفضل أطروحاته الإبستيمولوجية كان له الأثر الكبير في تحديد معالم في فلسفة العلم المعاصر، حيث يرى أن المعرفة العلمية لاتعتمد على مجموعة قواعد ومناهج علمية ثابتة وإنما تلعب الخلفيات المعرفية والإيديولوجية دورها في التفسيرات التي يهتدي إليها العلماء وفلاسفة العلم، هذا الطرح الذي جاء به بول فيرابند فتح مجال لآفاق وتساؤلات إيبستيمولوجية جديدة حاولت فهم وفك الطلاسم المهيمنة على العلم، من خلال الشك في تطبيقاته ومناهجه ونتائجه وقيمته، وإن الإبستيمولوجيا التعددية المنهجية التي ينادي بها فيرابند وقفت ضد هذه النزعة الواحديّة التي طبعت بطابعها فلسفة العلم الحديثة وإنطلاقا مما تم ذكره سلفا، سنحاول في هذا الفصل التمهيد لموضوع البحث الذي يتحدث عن الإبستيمولوجية والتعددية المنهجية، حيث سنتطرق في المبحث الأول إلى إبراز مفهومها و تاريخيتها، وكيف نشأت وتطورت حتى أصبحت مبحثًا قائمًا بذاته، بذكر مساهمات أعلام الفلاسفة في هذا الباب من أفلاطون **Palton** (347 – 428)، مرورا برونيه ديكارت **Runia Decarte** (1596 – 1650) وأوغست كونت August Count (1798–1857) وصولا إلى كارل بوبر K.R. Popper (1902– 1994) وبول فيرابند Paul Feyerabend.

أما فيما يخص المبحث الثاني سنتناول فيه المنهج العلمي، وإذا ماكان يصلح أن يكون معيارا لتمييز العلم عن اللاعلم، كما سنخص بالذكر مفهوم المنهج ووحدته، وسنتحدث كذلك عن تعدد المناهج ودورها في التقدم العلمي.

وأخيرا المبحث الثالث سنتطرق فيه للتطور الفكري للفيلسوف بول فيرابند، وسنناقش تفاصيل حياته، وأفكاره ومعتقداته وبعض إسهاماته الفكرية، مثلا مؤلفه "ضد المنهج" أو "العلم في المجتمع الحر".

المبحث الأول: تاريخية الإبستيمولوجيا

إن مصطلح الإبستيمولوجيا " l'épistémologie " هو لفظ مركب من لفظين يونانيين هما "إبستمي" أي المعرفة والعلم، و"لوغوس" أي النظرية والدراسة، فمعنى الإبستيمولوجيا هي نظرية العلوم أوفلسفة العلوم.[1]

وتُعنى الإبستيمولوجيا بدراسة مبادئ العلوم وفرضياتها، ومناهجها ونتائجها، دراسة نقدية ترمي إلى إبراز أساسها المنطقي، وقيمتها الموضوعية .[2]

بمعنى أنها تقوم بدراسة المعرفة ونقدها، فهي كل تفكير في العلم، أو في أي جانب من جوانبه، وفي مبادئه وفروضه، وقوانينه ونتائجه، وهذا مايوضحه محمد عابد الجابري في كتابه "مدخل إلى فلسفة العلوم" حيث يعرفها فيقول: "الإبستيمولوجيا Epistémologie مصطلح جديد، صيغ من كلمتين يونانيتين "Epistémè" ، ومعناها: علم، و"Logos" ومن معانيها: علم، نقد، نظرية، دراسة، والإبستيمولوجيا من حيث الإشتقاق اللغوي هي علم العلوم، أو الدراسة النقدية للعلوم".[3]

حيث تعتبر الإبستيمولوجيا فرع من فروع الفلسفة، يبحث في أصل المعرفة وبنياتها ومناهجها وقيمتها، ويسود الإعتقاد أن أول من إستخدم هذا المصطلح هو الفيلسوف الإسكتلندي (j.f.férier) ، وذلك في كتابه « institutes of metaphysics » حيث ميز بين فرعين من فروع الفلسفة، وهما الإبستيمولوجيا والأنطولوجيا.[4]

ورد مصطلح "الإبستيمولوجيا" في عدة لغات مع إختلاف في الرسم والنطق، فهو مثلا يطلق في اللغة الإنجليزية بالمعنى نفسه على "نظرية المعرفة" بوصفها تبحث في حدود المعرفة،

---

[1] جلال الدين السعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب، د (ط)، تونس، 2004، ص13.

[2] جان بياجيه، الإبستيمولوجيا التكوينية، ترجمة السيد نفادي، دار التكوين، د (ط)، دمشق، 2004، ص 24.

3 محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم " العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي "، مركز درجات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1976، ص 18.

[4] مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، د(ط)، القاهرة، 2007، ص12.

وشروطها ومصادرها، إلا أن الإختلاف يظهر في اللغة الفرنسية، إستنادا إلى أن الإبستيمولوجيا تهتم بالمعرفة العلمية وحدها، أما نظرية المعرفة فإنها تتناول أنواع المعارف وحدودها، وكذلك نجد الألمان يميزون في لغتهم بين نظرية المعرفة وبين الإبستيمولوجيا، فيعنون بهذا المصطلح الأخير فلسفة العلوم جميعها.[1]

وبناءا على هذا التفريق نجد الفيلسوف الفرنسي "أندريه لالاند" (1867-1963) يعرف الإبستيمولوجيا في موسوعته الفلسفية على أنها: فلسفة العلوم، ثم يضيف ولكن بمعنى أكثر دقة، هي ليست دراسة خاصة لمناهج العلوم، لأن هذه الدراسة موضوع للميتودولوجيا التي تشكل جزءًا من المنطق، وكما أنها ليست أيضا تركيبا، أو توقعا حدسيا للقوانين العلمية، وإنما هي الدراسة النقدية لمبادئ مختلف العلوم، والفروض والنتائج العلمية، الدراسة الهادفة إلى تحديد أصلها المنطقي، وبيان قيمتها الموضوعية".[2]

ويقصد لالاند من هذا التعريف أنها دراسة نقدية موضوعها "المعرفة العلمية" من حيث المبادئ التي ترتكز عليها، والفرضيات التي تنطلق منها، والنتائج التي تنتهي إليها. [3]

إن هذا الإختلاف في المصطلح يؤدي إلى تنوع الممارسات الإبستيمولوجية لأنها أصبحت موضع إهتمام للفلاسفة والعلماء، إلا أن هذا النوع من الدراسات والأبحاث قديم جدا منذ بداية ممارسة الفلسفة، وحديث في آن واحد، لأنه تم إعادة صياغته بأسلوب جديد أكثر وضوحا، ويمكن القول أن ميلاد الإبستيمولوجيا كان بداية مع الإغريق، بما أن الأصل الإشتقاقي لهذا المصطلح يوناني، حيث كان اليونانيون يجعلون من الإبستيمولوجيا أمرا يتعلق بالمعرفة بصفة عامة، فلا يخرجون عن ميدان المعرفة مانسميه اليوم بالعلم، ونجد مثلا محاورة "ثيتاتوس" theatetus لأفلاطون ممارسة إبستيمولوجية. [4]

---

[1] عبد القادر بشته، الإبستيمولوجيا "مثال فلسفة الفيزياء النيوتنية"، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1995، ص5.

[2] محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص18.

[3] محمد وقيدي، ما هي الإبستيمولوجيا، مكتبة المعارف، ط2، الرباط، د(س)، ص15.

[4] عبد القادر بشته، مرجع سابق، ص11.

فلقد كان أفلاطون مهتما بطبيعة المعرفة، وكان أكثر عناية بمسألة التمييز بين المعرفة والاعتقاد، الذي لم يكن يريد منه سوى امتثال كل شيء إلى العقل، بمعنى أن أفلاطون يفرق بين المعرفة وبين ما نعتقد أنه معرفة صحيحة (كل معرفة تأتي عن طريق الخبرة الحسية) "من خلال الامتثال إلى العقل الذي يوجهنا إلى الحقيقة المطلقة، فجعل المعرفة مقتصرة على مجال بعينه من الكينونات، الصور أو المثل التي كان ينادي بها، وبهذا المعرفة عند أفلاطون تقتصر على المثل فقط". [1]

ويتضح هنا أن مصطلح "الإبستيمولوجيا" آنذاك، في عصر سقراط وأفلاطون وأرسطو وما قبله، كان يدل على "المعرفة" أو "نظرية المعرفة"، باعتبارهم يبحثون في المعرفة وحدودها، وشروطها ومصادرها.

وتظهر بوادر الممارسات الإبستيمولوجية أكثر في العصر الحديث، مع ظهور هذه الإتجاهات الإبستيمولوجية "الإتجاه العقلي" و"الإتجاه التجريبي الإمبريقي"، مع كل من روني ديكارت (1596–1650) وإيمانويل كانط (1724–1804) ودافيد هيوم (1711–1776)، فمثلا يعتبر كتاب "المبادئ الفلسفية" لديكارت مؤلفًا إبستيمولوجيا، يبحث في المعرفة بصفة عامة، ويعتبر ديكارت أبرز ممثلي الاتجاه العقلي، الذي يعتقد بأن كل أفكارنا مستمدة من العقل، ويقر بوجود أفكار فطرية مستقلة عن الخبرة. [2]

وهذا ماأكده كانط بقوله: "إنه بالرغم من أن كل معارفنا تبدأ بالخبرة، فإن ذلك لايعني أن كل المعارف تنشأ عنها"[3]، وهذا يعني بأن العقلانيون نزعوا صوب الإقرار بإمكان المعرفة الفطرية.

---

[1] تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة نجيب الحصادي، الجزء الأول "من حرف أ إلى حرف ط"، المكتب الوطني للبحث والتطوير، د(ط)، د(ب)، د(س)، ص، ص، 25، 26.

[2] فريديريك كوبلستن، تاريخ الفلسفة: المجلد الرابع "الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى ليبنتز"، ترجمة سعيد توفيق محمود سيد أحمد وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط1، د(ب)،2013، ص39.

[3] تدهوندرتش، مرجع سابق، ص26.

أما الإتجاه الإمبريقي الذي يمثله كل من "هيوم" و "جون لوك" يزعم أن كل الأفكار مستمدة من إنطباعات الحس، فالخبرة تشكل أساس المعرفة، وإن أفكار الحس البسيطة أصل كل شيء آخر في الفهم، وبهذا تكون كل معارفنا مستمدة من الخبرة الحسية والتجربة. [1]

وهنا نجد أن الإبستيمولوجيا عند كل من هؤلاء الفلاسفة "ديكارت" و"هيوم " و"كانط" و"لوك" تعني البحث في المعرفة وحدودها من حيث أنها مدخل ضروري إلى الميتافيزيقا. [2]

وكما أشرنا سابقا "الإبستيمولوجيا" حقل معرفي خصب وثري بالممارسات الفكرية والعلمية، فعندما نذكر الإبستيمولوجيا لابد لنا وأن نتحدث عن أوغست كونت (1798-1857) الذي دعا إلى علم جديد يسمى"بالفيزياء الإجتماعية" والذي يعتبر إسهاما جديدا في الحقل الإبستيمولوجي، حيث يقول كونت:"إن الفكر البشري يمر بثلاث مراحل هي الفكر اللاهوتي، والفكر الميتافيزيقي، والفكر الوضعي الممثل لنضج الفكر عند الإنسان"[3]، بمعنى أن الفكر البشري عندما يبتعد بتفكيره عن الواقع، ويتناول بالبحث وقائع لاسبيل إلى معرفتها والكشف عنها، كالبحث في جواهر الأشياء وأسبابها الأولى، يأخذ تفكيره طابعا لاهوتيا، ثم طابعا ميتافيزيقيا، أما حين يوجه الفكر البشري كل إهتمامه على ملاحظة الظواهر والوقائع، ويكف عن هذه التأملات الميتافيزيقية، يصل الفكر إلى أرقى مراحل التطور[4]، إنطلاقا من إقتناعه بضرورة المعرفة العلمية، فالوضعية عنده ترادف العلم كما يتجلى في الفلك والرياضيات والفيزياء.[5]

[1] جون كوتنهام، العقلانية، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، 1997، ص 84، 86، 90.

[2] مراد وهبة، مرجع سابق، ص12.

[3] عبد القادر بشته، مرجع سابق، ص12.

[4] محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص25.

[5] عبد القادر بشته، مرجع سابق، ص12.

وإن مفهوم الوضعية يلتقي مع الإبستيمولوجيا كما يحددها كثير الفلاسفة في كونها عملا تابعا للعمل العلمي[1]، أي أن الفلسفة الوضعية ماهي إلا إختصاص علمي جديد يضاف إلى تلك الإختصاصات العلمية، ويعد تمهيدا للإبستيمولوجيا.

و فلسفة العلوم في تصوير كونت هي: "عبارة عن نظرة وحيدة تركيبية، يلقيها المرء على جميع العلوم، وعلى القوانين التي تكشف عنها، والمناهج التي تستخدمها، والغايات التي تسعى إليها، إن فلسفة العلوم بهذا المعنى هي البديل العلمي الوضعي للفلسفة الميتافيزيقية".[2]

أي أن فلسفة العلوم بهذا المعنى هي حقل واسع يدرس كل شيء يتعلق بالعلم، وكل جانب من جوانبه، مناهجه وقوانينه ومبادئه، ونتائجه، بمعنى أنها تدرس مختلف العلوم، ولا تختص بدراسة علم واحد فقط.

ولقد سار الوضعيون المحدثون أمثال "كارناب" (1891-1970) و "رايشنباخ" (1891-1953)على خطى الفيلسوف كونت في هذا المجال، فلا معرفة حقيقية بالنسبة لهم غير العلم الصحيح، لذلك كان تفكيرهم في المعرفة هو تنظيرا للعلم كما نفهمه اليوم.[3]

لقد تعددت الإسهامات الإبستيمولوجية في الأوساط العلمية والفلسفية، لتشمل أفكار "بشلار" (1884-1962) الذي يعتبر مؤلفه "الفكر العلمي الجديد "بدايات الإبستيمولوجيا البشلارية، حيث يؤكد بشلار في هذا الكتاب أن "الإبستيمولوجيا لايمكن أن تكون عقلانية، ولا يمكن أن تكون واقعية، بل من الضروري أن يوجد العمل الإبستيمولوجي على مفترق الطرفين" [4]، بمعنى أن إبستيمولوجيا بشلار تؤكد على أن نظريات العلميّة هي غير عقلانية، وغير واقعية تجريبية، وهي تهدف إلى الجمع بين الإتجاهين المعروفين "العقلي والتجريبي" وترفض كل منهما على حدا.

---

[1] محمد وقيدي، مرجع سابق، ص12.

[2] محمد عابد الجابري، مرجع سابق، ص26.

[3] عبد القادر بشته، مرجع سابق، ص12.

[4] عبد القادر بشته، نفس المرجع، ص43.

كما يرى بشلار أن مهمة الإبستيمولوجيا هي متابعة أثر المعارف العلمية في بنية الفكر، "ومهمة الإبستيمولوجي هي التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، تحليل نفسي موضوعه لا شعور الباحث العلمي، وهدفه إكتشاف جملة العوائق التي تعوق عملية المعرفة، والتي يسميها بشلار بالعوائق الإبستيمولوجية". [1]

وهذا يعني أن مهمة الإبستيمولوجيا هي إبراز القيمة الموضوعية للعلم من جهة، وبيان الاكتشافات العلمية وما قد يعيقها من الناحية العلمية، أو الثقافية أو النفسية من جهة أخرى، وإن إنجاز هذه المهام سيجعل الإبستيمولوجيا أمام ضرورة التعاون مع العلوم المختلفة، وهكذا يمكننا معرفة تاريخ العلوم، إضافة إلى فهم تاريخ الأنماط الأخرى من التفكير التي لها علاقة به.

وفضلا عما ارتآه الفلاسفة من أفكار إلا أننا نجد أن الإبستيمولوجيا في العصر المعاصر أخذت منحى مختلف عما سبق ذكره، حيث يرى كارل بوبر أن الإبستيمولوجياعلى نحو ماهي واردة عند ديكارت وهيوم ولوك، وباركلي وراسل هي إبستيمولوجيا تقليدية بلا معنى، لأنها تتناول المعرفة بالمعنى الذاتي، إذ هي تتناول "أنا أعرف" أو "أنا أفكر" بالمعنى الدارج الذي ليس له علاقة بالمعرفة العلمية، لأنها محصورة في عالم الذوات، في حين أن المعرفة العلمية تنتمي إلى عالم النظريات العلمية والمشاكل والحجج الموضوعية.[2]

وإن ما نقصده بمصطلح الإبستيمولوجيا يختلف عما كان يقصده الأوائل اليونانيون ومن حذى حذوهم، فنحن نتحدث عن "العلم" وعن "فلسفة العلوم" و"الثقافة العلمية" وتطبيقات العلم في مجال التكنولوجيا.

وإن هذا التصور الإبستيمولوجي للعلم هيمن على الوسط العلمي، إلا أنه لم يصمد أمام تلك التوجهات النسبوية، التي تسعى إلى تقويض كل شيء مطلق في العلم، وهذه التحولات التي تحدث على مستوى إبستيمولوجيا العلم، جعلت العقل المعاصر يعيد النظر في الكثير من

[1] محمد وقيدي، مرجع سابق، ص18.

[2] مراد وهبة، مرجع سابق، ص12.

المفاهيم الإيديولوجية التي كانت تسيطر عليه لقرون عديدة، وهذا ما أبرزته إبستيمولوجيا بول فيرابند(1924-1994) التي فتحت المجال لتساؤلات وآفاق إبستيمولوجية جديدة، لم يسبق أن تم طرحها من قبل في الأوساط العلمية والفلسفية المعاصرة، بمحاولته حماية العلم من نزعة الروح العلمية وطغيانها، من خلال الكشف عن أخطاء المعرفة العلمية وتوضيح مواطن الزيف الأيديولوجي فيها، وتحرير الخطاب العلمي من نوايا و أغراض الباحثين، ومن الأيديولوجيا القابعة خلف تفكيرهم، لأنه مثل هذه النوايا من شأنها أن تعرقل تقدم العلم.[1]

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، مؤسسة الهنداوي، د(ط)، القاهرة، د(س)، ص من 412 إلى 415.

المبحث الثاني: المنهجية بين الوحدة والتعدد

1) مفهوم المنهج:

المنهج من حيث دلالته اللغوية والإشتقاقية هو"الطريق الواضح والمستقيم، والسلوك البين، الذي يقضي بصحيح النظر فيه، إلى غاية مقصودة بسهولة ويسر".[1]

وأصل لفظ منهج لغة من الجذر نهج وأنهج، ونهج نهجا يعني: إتخذ منهاجا، أو طريقا للوصول إلى غاية، ونهج الطريق نهوجا بمعنى: وضح وإستبان، وصار نهجا واضحا بينا، ونهجته وأنهجته: أوضحته وسلكته، الطريق الناهجة هي الطريق المستقيم، والمنهاج هو الطريق المستمر.[2]

ومن هذا الأصل جرى إستعمال لفظ المنهج، لتعني بوجه عام وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة.[3]

ولقد كان لفظ المنهج يشير في القديم ولاسيما عند أفلاطون (427-347 ق.م) إلى البحث والنظر، وإلى الطريق المتبعة في أثناء المعرفة.[4]

ويوضع لفظ منهج مقابل للفظ methodus في اللاتينية، وmethod في الإنجليزية، وméthode في الفرنسية، حيث تعني الطريقة، والمنهج، أو النظام. [5]

وإذا كان المنهج méthod كلفظ يعني "الطريق" و"الطريقة" فإن المنهج كمصطلح في أشد معانيه عمومية يعني وسيلة المعرفة، الطريقة المتبعة في دراسة موضوع ما للتوصل إلى قانون، أو نتائج عامة، أو هو الطريق المجدد لتنظيم النشاط، الطريقة التي يتبعها العقل في

---

[1] جمبل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني من (ط) إلى (ي)، دار الكتاب اللبناني، د(ط)، بيروت، 1982، ص21.

[2] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مؤسسة الهنداوي، د(ط)، د(ب)، 2015، ص24.

[3] أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A-G، منشورات عويدات، ط2، بيروت،2001، ص803.

[4] جلال دين سعيد، مرجع سابق، ص450.

[5]إبراهيم خليل إبراش، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الإجتماعية، دار الشروق للنشر، ط1، عمان، 2009، ص65.

دراسة موضوع للوصول إلى قانون عام، كما أنه ترتيب الأفكار ترتيبا دقيقا، بحيث يؤدي إلى الكشف عن حقائق مجهولة. [1]

كما يعرفه المعجم الفلسفي"هو الطريق الواضح في التعبير عن شيء، أو عمل شيء طبقا لمبادئ معينة، وبنظام معين بغية الوصول إلى غاية معينة" [2]، أي تلك الطريقة التي ينتهجها الباحث ليصل إلى هدف معين، من خلال إتباعه لمجموعة من القواعد و الإجراءات، ليصل إلى أهدافه المسطرة.

وهو الترتيب الصائب للعمليات العقلية التي تقوم بها، بصدد الكشف عن الحقيقة والبرهنة عليها[3]، بمعنى أنّه بصفة عامة هو تلك الطريقة العلمية التي ينتهجها أي باحث في دراسة ظاهرة معينة أو معالجة مشكلة معينة وفق خطوات محددة، من أجل الوصول إلى غاية معينة.

1) وحدة المنهج:

يعتبر العلم مشروعا إنسانيا مميزا، ويعود ذلك جزئيا إلى منهجه، لأن منهج العلم منهج واحد كلي متميز يتضمن اليقين والمطلقية، وإن تقدم العلم يتطلب الإلتزام بقواعد منهجية صارمة، وإن مخالفة هذه القواعد وتجاوزها يعرقل نمو العلم وإستمراريته، فالعلم في صميمه معرفة منهجية، تستند إلى جملة من القواعد الثابتة، التي تميزه بوضوح عن أنواع المعرفة الأخرى، التي تفتقر إلى التخطيط والتنظيم[4]، كتلك المفاهيم والتصورات التي لا تزال تحيا في منظومات فلسفية، وقوالب دينية أو إجتماعية.

---

[1] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي (مرجع سابق)، ص28.

[2] مراد وهبة، معجم سابق، ص628.

[3] محمد محمد قاسم، كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، د(ط)، الإسكندرية، 1986، ص77.

[4] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها "بول فايراباند" نموذجا، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة وهران ، 2014، ص22.

ولكي نميز التفكير العلمي عن غيره كنا في حاجة إلى معيار لتمييزه، ويعتبر المنهج العلمي معيارا لتمييز العلم عن اللاعلم، وكما ورد في المعجم الفلسفي فالعلم هو "منظومة من المعارف المتناسقة التي تعتمد في تحصيلها على المنهج العلمي"[1]، بمعنى أن العلم منظم وليس عشوائي يقوم وفق عمل منهجي منظم.

وبهذا يكون العلم مختلفا عن البدائل الأخرى والتمثلات المنافسة له (كالأسطورة، الدين، السحر) ويصبح أرقى أنواع التفكير، ويكمن سر عظمة العلم، وسبب تقدمه أكثر عن أي شيء آخر، في استخدامه للمفاهيم الخاصة به، وتفرده بصلابة حجته وصرامة منطقه، ووحدة منهجه.[2]

وكما يقول محمد زكي نجيب: "إذا كان العلم وطبقاته العلمية التكنولوجية بمثابة فرائد، والقلائد التي تزين صدر الحضارة المعاصرة، فإن المنهج العلمي هو المنجم الذي نستخرج منه الفريدة تلو الفريدة"[3]، بمعنى أن المنهج العلمي جوهر العلم، وركيزته الأساسية التي يحقق من خلالها تقدمه وإستمراريته، ويعد مصدر كل المعارف العلمية التي توصلت إليها الحضارة المعاصرة.

ويعرفه عبد الرحمان بدوي:"هو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة". [4]

وعليه يمكن القول أن المنهج العلمي هو الآلة التي يتقدم من خلالها العلم، بإعتباره الوسيلة والغاية، والطريقة التي تحدد سير العلم وتوجهه نحو التطور، "إن مفهوم التقدم في العلم، مرتبط بضرورة الإقتداء بمنهج محدد صارم، فالعمل العلمي ليس بعشوائي، بل يقوم

[1] مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر، ط1، الأردن، 2009، ص338.

[2] رولان أومنيس، فلسفة الكوانتم "فهم العلم المعاصر وتأويله"، عالم المعرفة، د(ط)، الكويت، 2008، ص316.

[3] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي (مرجع سابق)، ص42.

[4] محمد محمد قاسم، مرجع سابق، ص 77، 88.

على معايير، وقواعد منهجية ثابتة، وشاملة تساعد على التحكم في الظواهر، وضبط القوانين".[1]

لهذا لا يمكن للعلم أن يستبعد وجود منهج كلي صارم، فائق القدرات، يمكن أن يكفل له اليقينيات، ومصداقية مفاهيمه.[2]

وإن أي إلغاء للمنهج، هو إلغاء للأحكام الموضوعية المتوصل إليها، وهذا يخل بالتقدم العلمي لأن العلم عمل منظم.[3]

وهذا ما دعا إليه الفلاسفة أمثال روني ديكارت (1561-1626) وفرانسيس بيكون (1561-1626) اللذان يعتبران من أكبر رواد المنهج، كان كل إهتمامهم وضع منهج كلي شامل يقوم عليه العلم، وتظهر هذه المساهمات الإبستيمولوجية حول المنهج، في المؤلف الشهير لديكارت المعنون بـ"مقالة في المنهج"الذي وضعه عام 1637 لتأكيد على أن المنهج جزء من المعرفة[4]، حيث يعرف ديكارت المنهج فيقول:"هو عبارة عن قواعد وثيقة سهلة، تمنع مراعاتها الدقيقة من أن يأخذ الباطل على أنه حق، وتبلغ بالنفس إلى المعرفة الصحيحة، بكل الأشياء التي تستطيع إدراكها، دون أن تضيع في جهود غير نافعة، بل هي تزيد في ما للنفس من علم بالتدريج"[5]، أي أنه مجموعة قواعد مؤكدة، إذا ما تم مراعاتها بدقة، كان الإنسان في مأمن من أن يحسب صوابا ما هو خطأ.

ولقد جعل ديكارت من التفكير المنهجي ضرورة للعلم، وهذا يتضح في دعوته الصريحة إلى إستخدام منهج واحد في كل البحوث المختلفة، للوصول إلى الحقيقة، نظرا لما عاشه هذا الفيلسوف في زمانه من إختلاف في الآراء بين العلماء والفلاسفة، ويزعم أن هذا الإختلاف

---

[1] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول عند فايرابند، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة وهران، 2017، ص242.

[2] رولان أومنيس، مرجع سابق، ص329.

[3] شادلي هواري، المرجع نفسه، ص243.

[4] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص42.

[5] رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الحصيري، المطبعة السلفية ومكتبتها، د(ط)، القاهرة، 1930، ص61.

حسب ديكارت، يتّضح كونهم جميعا يتخبطون في بحوثهم، ويسيرون فيها على غير هدى، دون أن تكون لديهم خطة مرسومة، أو منهج محدد واضح، وهذا مادعاه إلى القول بضرورة وجود منهج واحد وتطبيقه في مجال النظر والعمل جميعا.[1]

أما فرانسيس بيكون يعتبر كذلك أحد أهم فلاسفة المنهج، فلقد جسد روح عصره بإستقطابه لسؤال الطبيعة وتبنيه الدعوة لمنهج البحث المنصب عليها والملائم لها، وهذا يظهر جليا في مؤلفه "الأورغانون الجديد" novum organum ويعني عنوان هذا الكتاب "الأداة الجديدة" أو "الآلة الجديدة" يحتوي مضمون هذا الكتاب، على الأداة والآلة الجديدة المناسبة لإحتياجات العصر.[2]

ويعني بيكون بالأورغانون الجديد فيما يعنيه معنى المنهج، حيث يقول: "المنهج فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة، حيث نكون جاهلين بها، وإما من أجل البرهنة عليها للآخرين حتى نكون بها عالمين "[3]، أي هو طريقة لتنظيم الفكر، وتوجيهه إلى مساره الصحيح وفق خطة منهجية منظمة، بغية الوصول إلى الحقيقة.

والمنهج الذي ينشده بيكون هو الذي يكشف عن الحقيقة، ويبررها علميا، حيث يقول:" لقد فقدوا غاية العلوم وهدفها، وإختاروا طريقا خاطئا، بإتباعهم منهجا ليس من شأنه أن يكشف جديدا من مبادئ المعرفة ... فليكف الناس عن التعجب من أن تيار العلوم لايجري قدما في طريقه الصحيح، قد ظلهم منهج البحث الذي يهجر الخبرة التجريبية ويجعلهم يلفون حول أنفسهم في دوائر مغلقة، بينما المنهج القويم يقودهم من خلال إخراج التجربة إلى سهول تتسع لبداهات المعرفة".[4]

---

[1] عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، د(ط)، القاهرة، 1968، ص21.

[2] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص61.

[3] ابراهيم خليل إبراش، مرجع سابق، ص69.

[4] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص60.

ومما سبق ذكره يتضح أن العقلانية الحديثة تسعى إلى تحقيق الإستمرارية، والثبات المنهجي، وعنصر المنهجية الذي يسعون إلى إثباته في المعرفة، يعني التماسك إنطلاقا من مبدأ، ففي التأويل العقلاني يعتبر الفكر إنتاج نظام علمي موحد، وكل فكر لايسير نحو النظام المنهجي، فهو فكر لاتوجه له، والعقل لايقدم إلا فكرة الوحدة المنهجية[1]، أي أن العلم الحديث يقوم على الثبات المنهجي، فيرفض كل إدعاء يحاول التشكيك في حقيقة المنهج، وآلياته ومعاييره، فيدعو إلى ضرورة التمسك بمنهج واحد، فالعلم عمل منظم وممنهج.

ولقد بينت الدراسات التاريخية في ميدان العلم أهمية المنهجية، فالتطورات التي عرفتها الدراسات العلمية، مقرونة دائما بالمنهج العلمي، فكل التوجهات الوضعانية إبتداءا من "اوغست كونت"، وصولا إلى "أرنست ماخ" " فالوضعية التجريبية"، أكدت على ضرورة المنهج العلمي، فالبحث العلمي لايرتكز على عشوائية أو فوضى، وإنما هو بحث منظم وفق قواعد معينة، وأن أي معرفة تفتقر للتنظيم والتنسيق، ليست بمعرفة علمية، فالمنهج هو أساس البناء العلمي، وتبعا لما قيل يستحيل أن نتحدث عن المنهج دون أن نذكر كارل بوبر، ومعياره الرئيسي الذي جعل العلم، مقتصرا على صياغة قضايا يمكن تفنيدها تجريبيا[2]، أي يرى أن موضوعية العلم تكمن في موضوعية المنهج النقدي، أي ليس ثمة هناك نظرية علمية إلا وتخضع للنقد، فإذا صمدت هذه النظرية أمام النقد، يتم قبولها مؤكد حتى تثبت صحتها، أما إذا لم تصمد فإنها ستستبعد أن تكون حلاً علميًا.

وإن منهج العلم يتوقف على إختيار المشكلات وعلى نقد محاولاتها التجريبية المؤقتة لحلها[3]، وإن كارل بوبر كغيره من فلاسفة المنهج يدعو إلى وحدة المنهج، من خلال تأكيده

[1] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها، ص238.

[2] رولان أومنيس،مرجع سابق، ص330.

[3] كارل بوبر، بحث عن عالم أفضل، تر: أحمد مستجير، مكتبة الأسرة، د(ط)، د(ب)، 1999، ص 88.

على أن جميع العلوم تستخدم منهجا واحدا، ويعطي مثال على ذلك أن العلوم النظرية سواء كانت طبيعية أو إجتماعية، كلها تستخدم جميعها منهجا واحدا بعينه.[1]

ويقول في هذا: "إنه لاتوجد فوارق أيا كانت بين مناهج النظرية الطبيعية ومناهج العلوم الإجتماعية، فإن وجود مثل هذه الفوارق أمر واضح، بل إنها موجودة فيما بين العلوم الطبيعية المختلفة، ولكني أوافق مل وكونت وكثيرا غيرهما مثل كارل منهجر على أن المناهج المتبعة في هذين الميدانين هي في أساسها واحدة، وهذه المناهج ترجع إلى التفسير العلمي الإستنباطي والتنبؤ والإختبار وهذا ما يسمى بالمنهج الفرضي الإستنباطي، وحسب بوبر هذا هو المنهج الذي يجب أن تعتمد عليه العلوم لأنه منهج واحد".[2]

3) التعددية المنهجية:

تأثرت فلسفة العلم في النصف الثاني من القرن العشرين تأثرا عميقا بالتطور العلمي، خاصة بالثورات العلمية، التي جعلت فيلسوف العلم المعاصر يعيد النظر في الكثير من الأسس النظرية والمنهجية، التي ظلت لقرون مهيمنة على العلم، وتعد من البديهيات التي لا تقبل النقد، وكان مفهوم المنهج أشد المفاهيم عرضة لهذه المراجعة النقدية، ويمكننا القول أن "بول فيرابند"Paul .Karl.Feyerabend كان أكثر الفلاسفة إسهاما في التحول الذي شهدته فلسفة العلم المعاصرة، خاصة بنقده اللاذع للمنهج العلمي وثورته ضده، الذي لطالما تبارت التيارات الفلسفية في الدفاع عنه، فقدم لنا قراءة جديدة للعلم، وعمل على إعادة النظر في هذا الأخير، وفي علاقته بالمعارف الأخرى، فأصبح ثائرا على كل النظريات المعروفة في الحقل الفلسفي العلمي، من خلال زعزعته الثقة في كل ماهو مطلق، وثابت في العلم، فأصبح معارضا لكل مناهجه، ورفض أن يكون للبحث العلمي منهجا محددا، كونه يخضع للتعددية المنهجية.[3]

---

[1] كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي "دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية"، تر: عبد الحميد صبرة، دار المعارف، د(ط)، الإسكندرية، 1959، ص 159.

[2] كارل بوبر، بؤس الايديولوجيا "نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، دار الساقي، ط1، د(ب)، 1992، ص 136.

[3] حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فايرابند، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مج 13، ع 01، جامعة حسيبة بوعلي بالشلف، الجزائر، 2021، ص 285.

وتتخذ التعددية المنهجية في فلسفة العلم المعاصر عدة ملامح نذكر منها:

إن العلم أصبح ممكنا دون أن يكون هناك خبرة علمية، ودون أن يتقيد بقواعد منهجية، فالعلم بفضل التعددية المنهجية أصبح له طابعه الإنساني والإجتماعي، الذي من خلاله يحقق التقدم والتطور العلمي.[1]

والتعددية المنهجية التي يدعو إليها "فيرابند" تعددية تؤمن بوجهات النظر المختلفة، والبدائل النظرية المتعددة، وكل الأفكار والفروض، والنظريات التي من شأنها أن تفيدنا في توسيع نطاق معرفتنا[2]، أي أنها تؤمن بمختلف المعارف، والبدائل الأخرى على غرار العلم، التي من شأنها أن تقدم لنا وجهات نظر جديدة، تفيد البحث العلمي، فالعلم أصبح يتقدم من خلال إستعانته بهذه المعارف، وما تقدمه له من نظريات جديدة، دون أن يتقيد بمنهج واحد ووحيد، حيث يقول فيرابند: "ليس ثمة "منهج علمي"، إذ لا يوجد إجراء وحيد، أو مجموعة من القواعد التي تشكل أساسا لكل نموذج بحث، وضمانا لأن يكون بحثا "علميا"، ومن ثم لأن نضع ثقتنا فيه، فكل مشروع وكل نظرية، وكل إجراء إنما يخضع في الحكم عليه إلى أهليته الخاصة، إذ أن فكرة منهج كلي راسخ والتي تعد مقياسا ثابتا، وحتى الفكرة التي تقول بعقلانية كلية راسخة إنما هي فكرة غير واقعية".[3]

يحاول هنا فيرابند أن يبين لنا زيف المشروع المعرفي لفلسفة العلم الحديثة، من خلال هجومه على المنهج، ووقوفه ضد كل المعايير التي يفرضها العلماء والمناطقة في البحث، كقواني المنهج العلمي، حيث يرى فيرابند في هذه المعايير نوع من التقيد، وعرقلة للحرية الفردية، فمثل هذه القوانين والتعهدات، ليست من شأنها إلا أن تعيق مسيرة التقدم العلمي.[1]

ويزعم فيرابند أن مفهوم المنهج ليس واحدا، حتى إنتهى إلى أنه لا تحديد لمثل هذا المفهوم أصلا، وذلك في كتابه الشهير "ضد المنهج" الذي أكد فيه أن العلم لم يكن أبدا أسير منهج

---

[1] خالد قطب، التعددية المنهجية، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 2008، ص 13، 14.

[2] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقاداتها، مرجع سابق، ص 163.

[3] بول فيرابند، العلم في المجتمع الحر، ترجمة: السيد نفادي، المجلس الأعلى للثقافة، د(ط)، د(ب)، 2000، ص 113.

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 45.

واحد محدد، بل هو مشروع "أناركي anarchie"، أي مشروع فوضوي لايعترف بأي سلطة، وكل المناهج يمكن أن تجدي فيه، تبعا لشعار فيرابند الشهير "كل شيء مقبول"، وإنكب على تأكيد التعددية المنهجية، فكل منهج مقبول، طالما يلاءم طبيعة المشكلة المطروحة للبحث، ويؤدي إلى حلها وإضافة الجديد للعلم.[2]

إن المعرفة التي ينشدها فيرابند، ليست حلقات من سلسلة النظريات المتوافقة التي تتجه إلى الصدق[3]، حيث يقول: "إن العقلانية التي أنشدها ليست الوصول إلى نظرية مثالية، إنما بالأحرى زيادة محيط البدائل، وإستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت مند زمن، وأصبحت في طي النسيان، لأنها ربما يكون بها عنصر مثالي يقيد معرفتنا"[4]، بمعنى أن فيرابند لم يكن يريد أن يؤسس لنظرية مثالية خاصة به، كما يفعل باقي العلماء عندما إكتشفوا نظريات جديدة، بل أراد أن يمزج العلم بمختلف المعارف الإنسانية الأخرى، لأنّه ظاهرة إنسانية وإجتماعية، ويجب أن يستفيد من هذه المعارف التي تجعل سير تقدمه في تطور مستمر، بما قد تزوده من نظريات ووجهات نظر جديدة، ومتنوعة تفيد تقدمه.

ولهذا يرفض بول فيرابند السلطة المعرفية للمنهج العلمي الواحد، فالعلم "لايمكن أن يكون رهين منهج واحد بعينه، بإعتبار أنه نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، فهو شكل من أشكال المعرفة الإنسانية، يبلغ من التفرع إلى حد أن كل المناهج يمكن أن تفيد فيه، وجميعها مجدية طالما تحل المشاكل المطروحة، وهذا التنوع ضروري في العلم من أجل الابتكار والتقدم"[1].

---

[2] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مرجع سابق، ص 119.

[3] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقادتها، مرجع سابق، ص 164.

[4] خالد قطب، مرجع سابق، ص 44

[1] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مرجع سابق، ص 119.

نجد أن دعوة فيرابند إلى التعددية المنهجية، ورفض المنهج الواحد، تتفق في بعض أوجه مع وجهة نظر بعض فلاسفة العلم المعاصرين أمثال "توماس كون" و"مايكل بولاني" و"غاستون باشلار" إلا أن موقف فيرابند أكثر تميزا وأكثر ثورة ضد المنهج العلمي.[2]

ويمكن أن نبرز آراء هؤلاء الفلاسفة فيمايلي:

لقد رفض "توماس كون" وجود قواعد ومعايير خارجية تحدد الممارسة العلمية، بإعتبار أن هذه القواعد تخضع للتطور والنقد أو الفحص عن طريق البحث ذاته، ويرى *"مايكل بولاني" (1891-1976) أن التقيد بمنهج واحد ووحيد من مناهج العلم، يؤدي إلى الحد من نشاط المعرفة الإنسانية، فلا وجود حسب "بولاني" لإطار معرفي واحد يمكن وصفه بأنه عقلاني موضوعي، فلكل عالم تطلعاته المعرفية وخلفيته الفكرية، ومن ثم فالإبداع لايأتي عن طريق إتباع منهج محدد ثابت، وإنما من خلال التخمينات والخيال، فالمعاير تخضع للتّطوّر والفحص عن طريق عمليّة البحث ذاتها وليست من وجهات نظر عقلانيّة مجرّدة.[3]

كما رفض باشلار (1884-1962) وجود منهج علمي واحد صالح لكل علم، ولكل معرفة، فكل تقدم في الفكر العلمي، وكل تجربة جديدة كفيلة بأن تغير الفكر العلمي برمته لا المناهج فحسب، فلكل علم منهجه الخاص، ومفاهيمه التي تتلاءم والمرحلة التي هو عليها هذا العلم أو ذاك، فكل خطاب حول المنهج العلمي سيكون دائما خطابا سياقيا، ولن يتصف بالبنية النهائية[4]، نجد أن هؤلاء الفلاسفة يتفقون مع فيرابند في بعض الجوانب، من حيث عدم وجود منهج علمي واحد صالح لكل علم، لأن المناهج تتعدد وتتنوع بتغير مجالات العلم، وهذا الأخير من صفاته الأساسية التعدد المعرفي الذي يضمن له إستمراريته، لكن مع ذلك يظل الطرح

---

[2] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقادتها، مرجع سابق، ص 164.

* مايكل بولاني فيلسوف علم وإبستيمولوجي ألماني اشتهر بالنزعة النقدية المناهضة للنزعة الموضوعية في العلم، فالمعرفة العلمية عنده هي معرفة كامنة (بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقاداتها، ص164).

[3] بول فايراباند، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص 114.

[4] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقادتها، مرجع سابق، ص 165.

الفيرابندي أكثر تميزا، وإختلافا سواء في طرح الأفكار، أو في معالجته لمشكلة سير منطق العلم.

وإن الإبستيمولوجيا التي ينشدها فيرابند، ترفض حصر الممارسة العلمية في منهج واحد، لأن قواعده الصارمة تعرقل العلم أكثر مما تنميه، فالعلم لم يكن يوما نتاج قواعد منهجية محددة، بل ماهو إلا محصلة لعملية البحث، فلا يمكن الإحتكام إلى هذه القواعد في تقييم النظريات العلمية.[1]

لأن معظم القواعد التي يحاول علماء وفلاسفة العلم الدفاع بإعتبارها شكلا تنظيميا للمنهج العلمي "هي إما عديمة النفع، لأنها لاتثمر النتائج التي من المفترض أن تثمرها، أو هي ضعيفة: حيث يقول فيرابند: فنحن اليوم مضطرون إلى ممارسة العلم دون أن تكون لدينا قدرة على الركون إلى أي منهج علمي محدد تماما وراسخ تمام الرسخ".[2]

ولهذا يؤكّد فيرابند أن جميع الميتودولوجيات القائمة في فلسفة العلم، لم يستطع أي منها تفسير العلم وفهم حقيقته، لأنها تختزل العلم في مجموعة من المبادئ المنطقيّة والمعايير الصارمة، في حين أن العقلانيّة ومن ثمّ المعرفة التي نحتاجها في إدراك التقدم العلمي، لا تأتي من القواعد والنظريات، وإنما بتنوّع وتعدّد وجهات النظر.[3]

وتعتبر التعددية المنهجية في نظر فيرابند هي الأسلوب الأمثل، والأجدر لإبراز التقدّم في البحث العلمي، تفتح مجال الإبداع والإبتكار، وتضع فيلسوف العلم أمام إحتملات وخيرات متعددة، فالعقل المنفتح والمتحرّر يناقش قضايا متشعبة، بإتباع طرق بحث مختلفة وجديدة تساهم في نمو العلم تقدم.[4]

وبالتالي فإن تعدد الطرق والمناهج في العلم، ليس أمرا سلبيًّا بقدر ماهو إيجابي، لأنه يضفي على العلم تنوعا معرفيا، فالتعددية تزود الباحث بروح النقد، والإعتراف بالإختلاف

---

[1] حياة مشاط، مرجع سابق، 288.

[2] بول فيرابند، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص 113.

[3] بوصالحيح حمدان،العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقادتها، مرجع سابق، ص 164.

[4] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 177.

والإنفتاح، فلا يسلّم بالعلم على أنّه فكرة مقدّسة بل يحلل ويناقش وينقد، ولهذا دعا فيرابند إلى أن يكون التعليم حرا، حيث يدرس فيه جميع أنماط المعرفة الإنسانية دون تفضيل نمط معرفي عن آخر، ودون تقييد قرارات العالم بتلك القوالب والقواعد المنهجية الجامدة، لأن تنوع المناهج وتعددها، هو طريق الإبداع في مجال العلم وسر تقدمه.[1]

[1] حياة مشاط، مرجع سابق، 288.

المبحث الثالث: التطور الفكري لبول فيرابند.

بول فيرابند(1924-1994) ولد في فيينا، من عائلة ذات طبقة متوسطة، عاش ظروف قاسية، لما كان يحدث في مجتمعه من تشتت وصراع وحروب إلى غير ذلك، أكمل دراسته الثانوية، ثم إلتحق بالخدمة العسكرية وإنخرط في صفوف الجيش الألماني، وأثناء الحرب العالمية الثانية عام 1945، أصيب برصاصة في العمود الفقري، وتعرض بعدها لشلل في الجزء الأسفل من جسمه، تسبب له في عدم قدرته على السير بقية حياته إلا بمساعدة عصى، وبعد هذه الحادثة التحق فيرابند بمعهد التجديد المنهجي للمسرح الألماني، بـ"فيمار" weimar في ألمانيا،حيث درس الإنتاج المسرحي والغناء والتمثيل، وأشرف على كتابة وتحرير حوارات ومقاطع مسرحيات وشارك في نقاشات بريخت لليساريين التي تعقب العرض المسرحي.[1]

وفي الفترة مابين عام (1946-1951) درس فيرابند التاريخ، وعلم الفلك والفيزياء، وإشترك في تلك الآونة في تأسيس نادي للفلسفة، تحت اسم "دائرة كرافت" نسبة إلى فيكتور كرافت، أحد أعضاء دائرة فيينا Vienna circle، المعروفين فيما بعد باسم الوضعية المنطقية أو التجريبية المنطقية، حيث كانت دائرة كرافت تعقد إجتماعات في العديد من الأماكن بقرية ألباخ في تيرول، وهنا تعرف فيرابند على العديد من الطلاب النابغين، والفنانين المشهورين والسياسين البارزين[2]، من بينهم الفيزيائي فليكس إيرنهافت Flixe Ehrenhaft ، الذي تأثر به وإنبهر بكتاباته، لرغبته الشديدة في إتخاذ مواقف متطرفة، مخالف لما هو سائد في علم الفيزياء، وإن العقلانيّة العلميّة لفيرابند قد تأسست بالقرب من إيرنهافت، لأنه لم يكن ينظر إلى العلم في ذلك الوقت باعتباره مشروعا يعتمد في تقدمه على تأثيرات لاعقلانية[3]، وكان أيضا على تواصل بالعالم والفيلسوف "فيليب فرانك" philipp frnnk، وكما قابل في تلك الآونة أيضا الفيلسوفة الإنجليزية "إليزابيث أنسكومب Elisabeth Anscomb، التي كانت تدرس اللغة الألمانية،

[1] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 20.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأ المعارف الإسكندرية، د(ط)، د(س)، ص 6.

[3] بول فيرابند، العلم في المجتمع الحر، مصدر سابق، ص 4، 5.

محاولة ترجمة بعض أعمال فيتجنشتاين، وقد تأثر فيرابند منذ تلك الآونة بفكرة" فيتجنشتاين" التي يذهب فيها إلى أن المفاهيم والتّصوّرات العامة المقبولة قد تتغير من عصر لآخر، وقد يعتريها تغيير من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى ثقافة.[1] وقد حصل فيرابند على درجة دكتوراه عام 1951، وبعد فترة قصيرة قضاها في دراسة فلسفة العلم في "كوبنهاغن" و"ستوكهولم" و"أوسلو" سافر إلى إنجلترا عام 1952 برفقة فيتخنشتاين، ليلحق بجامعة كامبردج، لكن وفاة هذا الأخير حالت دون ذلك، وبعدما إلتحق بالجامعة التقى بـ "كارل بوبر" في مدرسة لندن للإقتصاد والسياسة، فإنبهر بأفكاره وتبنى مبدأ "القابلية للتكذيب" ودافع عنه طويلا ضد النزعة الإستقرائية، حيث أصبح يؤخذ بهذا المبدأ في دائرة كرافت التي كان ينتمي إليها، كفكرة مسلم به دون نقاش، إلا أن هذا الانبهار بفلسفة "بوبر" لم يستمر طويلا لينقلب عليها، حيث يمكننا القول أن فلسفة بول فيرابند في جوانب كثيرة منها، أضحت تتعلق بدحض أفكار بوبر حتى زعم إلى إعتبار تلك الفلسفة أكبر عائق أمام تقدم العلم.[2]

ثم حصل على إجازة من جامعة بريستول بإنجلترا درس فيها فلسفة فيتجنشتاين وميكانيكا الكم، ويعبر فيرابند عن أفكاره في تلك الآونة بعبارات تتم عما تؤول إليه هذه الأفكار في المستقبل: لقد إكتشف أن مبادئ الفيزياء الهامة تقوم على إفتراضات منهجية يتم تجاوزها مع تقدم علم الفيزياء، وفي عام 1958 إنتقل فيرابند إلى بيركلي بالولايات المتحدة الأمريكية ليعمل أستاذا بجامعة كاليفورنيا، وإستقر هناك حتى تقاعد عن العمل عام 1990، وهناك أخذ يكرر مجموعة من الأفكار ظلت حتى نهاية حياته العمود الفقري لكتاباته، حيث بدا ناقما على النظام التعليمي العربي منذ البداية، حيث يؤكد على أنه قد كانت وظيفتي تتلخص في أن ننقذ السياسات التعليمية لولاية كاليفورنيا وكان ذلك يعني أن نقوم بتلقين الناس ماتعتقد شرذمة من

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص 6.

[2] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 22.

المثقفين أنه معرفة، ولم أفكر بعمق في مهام تلك الوظيفة التي ماكنت آخذها مأخذ الجد لو علمت بها.[1]

إكتسب فيرابند شهرته الأولى المبكرة عن أعماله في فلسفة الفيزياء خاصة ميكانيكا الكوانتوم، لم يهتم فيرابند كثيرا في بدايات دراساته بتاريخ العلم، بقدر إهتمامه ببعض المشكلات التقليدية، من قبل التمييز بين النظرية وحدود الملاحظات، وإن أهم بحث نشره في تلك الفترة، هو المقال الذي نشر عام 1962، وتحدث فيه عن مفهوم "اللاقياسية"، إن جانبا كبيرا من الأفكار التي سادت عن هذا المفهوم في فلسفة العلم المعاصر، يرجع الفضل فيها إلى أطروحات فيرابند المبكرة في هذا الموضوع.[2]

وقد شرع بعد ذلك فيرابند في كتابة عدة أبحاث يروج فيها لفكرة وفرة أو تعدد الأفكار، وهي أحد الأفكار المركزية في فلسفته، ويعتبر كتاب "ضد المنهج" خطة لنظرية فوضوية في المعرفة، والذي نشر للمرة الأولى عام 1975، أهم أعمال فيرابند، حيث كانت نيته أن يعرض أفكاره الأساسية فيه، ويقوم لاكاتوس بالرد عليه في نفس الكتاب، إلا أن وفاته المفاجئة أحالت دون ذلك، وقد طور فيرابند أفكاره وأوردها في أعمال أخرى أهمها: "العلم في المجتمع الحر" الذي نشره عام 1978، ثم "وداعا للعقل" عام 1987 وناقش في هذين الكتابين فكرة التعدد أو التنوع الثقافي والمذهب النسبي.[3]

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص 8-9.

[2] المصدر نفسه، ص 8.

[3] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 25.

وكخلاصة للفصل يمكن القول أن فلسفة العلم في العصر المعاصر شهدت عدة إتجاهات نقدية منفتحة على غيرها من الفلسفات السابقة، متمثلة في النسبوية والتعددية المنهجية لإبستيمولوجيا بول فيرابند التي عملت على تقويض كل ماهو مطلق في العلم، منتقدة بذلك أحادية منهجه وصرامة منطقه الذي لطالما تبارت الفلسفات العقلانية الكلاسيكية في تبريره، والدفاع عنه خاصة مع رواد المنهج فرنسيس بيكون، روني ديكارت وكارل بوبر الذين جعلوا من مؤلفاتهم دعوة صريحة لتبني أحادية المنهج، إنه الأمر الذي جعل من بول فيرابند يعيد النظر في معالم الفلسفة الحديثة ثائرا بذلك على كل ميتودولوجيا عقلانية تحاول عقلنة الممارسة العلمية.

الفصل الثاني: منطلقات الفلسفة التعددية المنهجية عند بول فيرابند

المبحث الأول: نقد بول فيرابند للعقلانية العلمية المعاصرة.

1) نقد العقلانية التجريبية "الوضعية المنطقية".

2) نقد العقلانية النقدية "كارل بوبر"

3) نقد العقلانية المؤسساتية "توماس كون"

4) نقد العقلانية الميتودولوجية "إمري لاكانوس"

المبحث الثاني: الأسس الإبستمولوجية للاعقلانية العلمية عند فيرابند.

1) إشكالية العلاقة بين العلم واللاعقلانية

2) مفهوم النظرية العلمية عند فيرابند.

3) مبادئ النظرية العلمية عند فيرابند.

المبحث الثالث: الفوضوية الابستمولوجية ودورها في تطور العلم.

1) فهوم الفوضوية الابستمولوجية عند فيرابند.

2) مفهوم النسبية عند فيرابند.

3) ضد أحادية المنهج.

بعد أن تطرقنا في الفصل الأول إلى تاريخية الإبستمولوجيا، مشيرين بذلك إلى منهج العلم، ومن ثم عرضنا لشخصية بول فيرابند نتناول في هذا الفصل منطلقات فلسفة التعددية المنهجية، ونوضح كيف نشأت فلسفة فيرابند من خلال إبرازه لمواقف الفلسفات العقلانية المعاصرة ووضعها في دائرة النقد، كالعقلانية التجريبية بالأخص الوضعية المنطقية، والعقلانية النقدية عند كارل بوبر، وغيرها من الانتقادات لتلك الممارسات العقلانية العلمية، منطلقين بذلك إلى إبراز الأسس الإبستمولوجية للعقلانية العلمية عند فيرابند، المتمثلة في توضيح العلاقة بين العلم واللاعقلانية التي ينشدها في فلسفته، من بناء وتأسيس للنظريات العلمية، كاشفا بذلك عن الفوضوية الإبستمولوجية في فلسفة العلم، ودورها في تقدم المعرفة العلمية لما ترتكز عليه من مبادئ كنسبية المعرفة ودعوتها ضد أحادية المنهج.

المبحث الأول: نقد بول فيرابند للعقلانية العلمية المعاصرة

1) نقد العقلانية التجريبية "الوضعية المنطقية":

التجريبية المنطقية حركة فكرية فلسفية تضم مجموعة من العلماء متعددي الإختصاصات والإهتمامات، ومن أبرزهم: موريس شليك (1882–1936) وفليب فرانك (1866–1884) وأوتونيوراث (1883–1953) وهانز رايشنباخ (1891–1953)، جمعتهم حلقة علمية سميت "حلقة فيينا"، وكان أعضاء هذه الحلقة يدعون إلى فلسفة علمية تحت دعوة "وحدة العلم"، التي حاولوا نشرها وتحقيقها من خلال ما كانوا ينشرونه في مجلة « Erkenntnis » "المعرفة". [1]

وأطلق على هذه الفلسفة التي يتبناها أعضاء هذه الحلقة مصطلح المذهب التجريبي، وفي كتابات أخرى سميت بالوضعية المعاصرة أو التجريبية العلمية، إلا أن المصطلح الأكثر رواجا هو مصطلح "الوضعية المنطقية"[2]، لأنها جمعت بين الإتجاه الوضعي الذي مؤداه أن كل معرفة ينبغي أن تقوم على الخبرة، وتكون نتاج مناهج وضعية، وبين الفكرة القائلة أن الفلسفة هي تحليل منطقي للغة العلم ولتصوراته الأساسية. [3]

ظهرت هذه الحلقة في وقت تحولات علمية كبرى، وكانت تعتبر نفسها حركة ثورية تحاول تجاوز الفلسفات التي سبقتها، من خلال تحطيمها للمعتقدات والأطروحات السائدة التي رسخها تقليد فلسفي، بإستثناء الإتجاهات التجريبية والوضعية. [4]

يتوجه فيرابند بالنقد للقواعد المنهجية التي تقوم عليها الوضعية المنطقية، وأهم هذه القواعد التمييز بين سياق الكشف وسياق التبرير، حيث كانت المقاربات الإبستمولوجية قبل فيرابند تؤمن بهذا المبدأ، لإعترافهم بعدم وجود طريقة لكتشاف النظريات، لأنه لا يوجد دراسات منظمة ومفيدة في مجال الكشف، إذ تقع مثل هذه الدراسات ضمن نطاق الحدس والإلهام والتخمين،

---

[1] حميد لشهب، دائرة فيينا الوضعية المنطقية ونشأتها، المركز الإسلامي لدراسات الاستراتيجية، ط1، بيروت، 2019، ص، ص 19، 20، 79.

[2] محمد محمود الكبيسي، فلسفة العلم ومنطق البحث العلمي، بيت الحكمة، د(ط)، بغداد، 2009، ص 150.

[3] ستاتسبسيلوس، فلسفة العلم من الألف إلى الياء، المركز القومي للترجمة، د(ط)، قاهرة، 2018، ص 209.

[4] نعيمة ولد يوسف، مشكلة الاستقراء في ابستمولوجيا كارل بوبر، دار الروافد الثقافية، ط1، لبنان، 2015، ص 44.

وكلها مفاهيم يصعب إخضاعها للقوانين أو حتى للدراسة المنهجية، فمنطق الكشف، قد يكون لا عقلانيا، لأنه يحتوي على عناصر ذاتية في حين إن منطق التبرير يقوم على الملاحظة والتجريب ودراسته مشروعة وهامة.[1]

لم يأخذ فيرابند بهذا الرأي وإعترض على هذا التمييز بين السياقين، ويظهر هذا في مقال كتبه عام 1961 بعنوان knowledge without foundations يثبت فيه أن عملية قبول نتائج أي تجربة تختلط بعناصر ذاتية، ونزعات شخصية لجمعات من العلماء تماما كما يحدث في عملية الكشف، ويؤكد أن هذا التمييز غير حقيقي ومصطنع، فلا يمكن إن يكون الكشف مجرد خبط عشوائي، وإنما يدخل ضمنه الكثير من الإستدلال، كما إن التبرير يتضمن كذلك عناصر ذاتية، حيث يقول: "إن التمييز بين سياقي التبرير والكشف غير حقيقي فالكشف لا يكون أبدا قفزة في ظلماء، أو حلما...كما إن التبرير لا يكون أبدا إجراء موضوعا تاما".[2]

إن معظم الإتجاهات المعاصرة إعترضت على هذا التمييز ولم تأخذ به، فنجد توماس كون يعتقد أن السياقان ليسا سوى وجهين متقابلين لعملة واحدة، فهما يسيران جنبا إلى جنب، ولهذا يقول فيرابند: "الكل يقرأ أن الكشف قد يكون لا عقلانيا ومليئا بالعناصر الذاتية...لكن ما يتم إكتشافه بهذه الطريقة اللاعقلانية يخضع بعد ذلك للإختبار، ويفرض هذا الإختبار عليه مقاييس صارمة ويصبح بعد ذلك موضوعيا".[3]

لقد قام هذا الفيلسوف بزعزعة الأسس التي تقوم عليها العقلانية التجريبية، خاصة في إعتقادها بأن العلم التجريبي الإمبريقي هو أساس كل معرفة، فلم يكتف بإنكار التمييز بين سياق الكشف والتبرير، وإنما أثبت عدم وجود تمييز بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، وهذا من ناحية أن العلوم جميعها مهما كانت مختلفة، فهي نشاطات إنسانية وهذه العلوم

[1] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 6.

[2] بول فايراباند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 16.

[3] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 290.

الإنسانية تتضمن معرفة لا يمكن إنكارها، وهي تزيد من محيط البدائل، وتوسع مجال الدراسة وتفيد معرفتنا في فهم العالم.[1]

إن مشاريع العلم هي بصورة حاسمة إنجازات إنسانية، وإن الصفة الجذرية للعلم بعد كل شيء نشاط إنساني، كل أنظمته نصونها نحن البشر، لذلك فإن كل العلوم هي معرفة إنسانية، من ناحية أنها لا يمكن تعيين خصائصها بمعزل عن الثقافة والتاريخ الإنساني، كما يرى الوضعيون المناطقة، وإنما تعمل على تطويره بما تقدمه من وجهات نظر، ونظريات متعددة تجعل مجال البحث العلمي أكثر تفتحا على العلوم الأخرى.[2]

ويرفض فيرابند التسليم بمبدأ عقلانية المنهج العلمي، الذي تجد فيه الوضعية المنطقية ضالتها فتدعي أنه ينبغي الالتزام به في الممارسات العلمية، بما يحتويه من مبادئ ثابتة، لقد كان موقفه من هذا الرأي الرفض، لأنه لا يؤمن بوجود منهج علمي بالأساس يخضع إليه العلم، حيث يقول: "على الرغم من وجود أنماط للنجاح في العلوم، إلا أنه لا يوجد منهج ثابت، ولا يمكن أن يكون ثمة منهج كلي...فالإنجازات التي تمت في مجال العلوم، لا يمكن أن تعزي لوجود مبادئ عامة تغطي كل الحالات، فلا يوجد حقيقة كلية ولا مبادئ ثابتة للعقل".[3]

ولهذا يرى أن إختزال الممارسة العلمية في منهج وحيد، يؤدي إلى إلغاء جزء كبير من البحث العلمي، ويقصي العديد من المعارف من دائرة العلم، بحكم أنها لا تخضع للمنهج، ولهذا يقول: "إن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والمنهج الذي يشجع التنوع هو المنهج الوحيد المتناسب مع النظرة الإنسانية"[4]، أي أنه يجب تجاوز عملية المنهج الثابت لتكون الممارسة العلمية حرة، فهذا ضروري لنمو المعرفة وتقدم العلم، فإن السيطرة التي يخضع لها تحرمنا من نظريات كثيرة، قد يحالفها الصواب في تسويغ معرفتنا.

---

[1] حياة مشاط، مرجع السابق، ص290.

[2] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص 433.

[3] خالد قطب، مرجع سابق، ص 34.

[4] بول فيرابند، طغيان العلم (مصدر سابق)، ص 21.

ويعيب فيرابند على تلك القواعد التي تتمسك بها الوضعية المنطقية كمبدأ الإتساق، لأنها قوانين تعرقل العقل وتحد من التفكير، فالفكر لا يثمر إلا في إطار التعدد، كما أن العلم يجد تقدمه في التنوع والتناقض، وإن الواقع العلمي أكبر دليل على أن النظريات العلمية تقدمت وهي تحمل في طياتها تناقضات، وبهذا ينتهي إلى القول أن العقلانية التجريبية وما تأسس له من قواعد لا يساهم في تقدم العلم وإنما يعوق هذا التقدم.[1]

2) نقد العقلانية النقدية "كارل بوبر":

يعد كارل بوبر (1902-1944) نموذجا لسيادة الروح النقدية في فلسفة العلم، ولقد كان النقد لب فلسفته، ومبحثها الأساسي الذي اعتمد عليه في تناوله لقضية المنهج والمعرفة واللاعلمية.[2]

ويعتقد بوبر أن العلم يتقدم بالتخمين والدحض، وإن مبدأ التكذيب هو جوهر منطق العلم، الذي يعد معيارا هاما للتمييز بين النظريات العلمية والعلم الزائف، فالنظرية تقدم بوصفها مؤقتة، والنتائج المستنبطة منها تختبر على التجربة، فإذا كانت الملاحظات المتكونة غير متسقة مع تلك التي تتنبأ بها النظرية، دحضت النظرية وأصبح الطريق مفتوحا لتخمين جديد.[3]

إن في العلم ليس هناك نظريات صادقة، وإنما هناك نظريات تقترب من الحقيقة والصدق، فإخضاع النظريات لمبدأ التكذيب مهم جدا، يكشف لنا مواطن الكذب في نظرية ما، فيؤدي إلى معالجتها وتطويرها إلى الأفضل أو رفضها، والبحث عن نظرية أخرى تكون أكثر قربا من الصدق، ولهذا فالنظريات العلمية وفق بوبر تتطور لأن العلم عرضة لقابلية التكذيب، وبخضوعه للمراجعة النقدية عن طريق إكتشاف الخطأ وإستبعاده، تظهر نظريات جديدة، وهكذا يحصل التقدم العلمي.[4]

---

[1] بوصالحيح حمدان، مرجع سابق، ص 59.

[2] ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة العلوم المشكلات المعرفية، دار المعرفة الجامعية، ط 2، د (ب)، 2000، ص 230.

[3] جون كوتنغهام، مرجع سابق، ص160.

[4] فاطمة يونس محمد يوسفن فلسفة العلم عند كارل بوبر، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2015، ص 34.

إن تسليم بوبر بمبدأ قابلية التكذيب، وجعله المعيار الأساسي في تقدم العلم وتمييزه بين العلم واللاعلم، جعله عرضة للإنتقاد والرفض من قبل فلاسفة العلم المعاصرين له، وخاصة بول فيرابند الذي كان من أشد المعارضين لأفكاره وفلسفته، ويعيب عليه في هذا المبدأ، لأنه يوجد في رأيه الكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها بوبر، وإن إعتراضه على مبدأ التنفيذ من منطلق أن العلماء لا يتخلون عن نظرياتهم لمجرد تعارض بعض الوقائع معها، وإذا كان بوبر يؤكد على رفض النظريات فإن فيرابند يدعو إلى إستبقائها والدفاع عنها، حيث يقول: "إن النظرية قد تطوق بعدد كبير من النظريات المساعدة القديمة، أو المفندة التي دعا بوبر إلى التخلي عنها، ومنها قد تبدو لنا نظرية كاذبة، بينما يتضح لنا بعد فترة من خلال النظريات الأخرى المساعدة أنها ليست كذلك".[1]

هذا القول يوضح موقفه المخالف لكارل بوبر، فدعوته لإقامة التمييز والفصل بين العلم واللاعلم غير مبرر على الإطلاق، لأن تاريخ العلم يوضح أن كل الإكتشافات العلمية الهامة، هي نتيجة لخرق القواعد المنهجية وإتباع الأفكار المتحررة اللامعقولة، ولهذا يرفض أي فصل بين العلم والمعارف الإنسانية الأخرى، لأنه مشروع مزيف ومظل لتقدم المعرفة العلمية.[2]

لا يكتفي فيرابند بنقده لمناهج البحث عند بوبر، بل يهاجم أيضا الفلسفة النقدية التي ينتمي إليها فيقول: "لا يوجد تاريخ هام واحد في تاريخ العلم، يمكن تفسيره من خلال منهج بوبر، كما لا توجد محاولة لدى هؤلاء النقديين لرؤية العلم من منظور صحيح، إن هذه الفلسفة ليست سوى خادم مخلص غير فاهم للعلم".[3]، أي أن المنهج الذي أتى به بوبر لا يقدم جديدا للعلم، فلا يمكن إعتباره هدفا هاما في تاريخ فلسفة العلم، فالفكرة القائلة بالتقدم من خلال التكذيب، لم تكن كشفا حقيقيا للعقلانية النقدية، فلقد ذكر العديد من القدماء ومن خلفهم أهمية الأمثلة المضادة، هذا فضلا عن أن المقولة ذاتها ليست صحيحة، فالعديد من التحولات الهامة

[1] بوب فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 19.

[2] لخضر مذبوح، مرجع سابق، ص 489.

[3] فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص20.

في العلم حدثت دون تكذيب على الإطلاق، إن التكذيب يخفق إخفاقا ذريعا كشرط للعقلانية العلمية.[1]

إن هذا الرفض الصريح ضد العقلانية، يصرح به في كل مؤلفاته خاصة مؤلفة "ضد المنهج" الذي يهدف إلى التحرر من أعمال المنهج الثابت، كما يوضحه العنوان الفرعي للكتاب "**خطاطة نظرية فوضوية للمعرفة**"، ويؤكد فيه أنه ليس هناك فكرة قديمة، أو غير معقولة لا تساهم في تقدم معرفتنا، إن الأفكار وحدها هي التي تسير معرفتنا، فالأسطورة نفسها يمكن أن تظهر أنها خصبة، ولهذا يجب أن نعيد للروح العلمية حريتها الكاملة لمواجهة القواعد المفروضة، وهو بذلك يؤسس لإبستمولوجيا فوضوية لا عقلانية في العلم، تخالف كل العقلانيات الكلاسيكية والنقدية التي تسعى إلى عقلنة الممارسة العلمية[2]، وينتهي من نقده هذا بالإعتراف أن قواعد بوبر المنهجية لا تساهم في نمو المعرفة وإنما تعوق تقدمها، لأنها لا فائدة لها بالنسبة للعلم، فلو طبق جاليلو قواعد بوبر المنهجية لكان ما يزال يعيش في مرحلة الفيزياء الأرسطية حتى الآن.[3]

3) نقد العقلانية المؤسساتية "توماس كون":

توماس كون (1952-1956) أحد أبرز فلاسفة العلم، فلسفته تتمحور حول فكرة النموذج الإرشادي paradigm، وقد إتخذ هذا المصطلح عنده عدة معاني، والنموذج الإرشادي أو ما يسمى الإطار الفكري؛ هو تلك النظريات المعتمدة كنموذج لدى مجتمع من الباحثين العلميين في عصر بذاته، علاوة على طرق البحث المميزة لتحديد وحل المشكلات العلمية، والنماذج الإرشادية غير القاسية، فثمة قطيعة بين المفاهيم في النظرية الأساسية المختلفة في العلم، وإن حركة العلم، أو النظريات العلمية أو النماذج الإرشادية الجديدة ليست نتيجة منطقية، ولا تجريبية للنظريات السابقة عليها، وهي لا قياسية ونسبية، وإن في كل حقبة علمية أو مع

[1] نفس المصدر، ص، ص 229، 230.

[2] لخضر مذبوح، مرجع سابق، ص 489.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 20.

كل ثورة علمية تكون السيادة لنموذج إرشادي له الغلبة، وتختلف هذه النماذج عن بعضها، وتحل محل بعضها البعض على مدى مسار التطور التاريخي للمعرفة العلمية.[1]

وإن النموذج الجديد لا يستطيع لأن يبدأ كأفكار متناثرة، بل يكون من البداية محددا بدرجة تكفي أن يظهر إمكانياته الملفتة للنظر بالنسبة لمخترعيه[2]، ويرى أن المعرفة ثورية لأن الثورة العلمية تحدث نتيجة تغيرات لاستيعاب ظاهرة من نوع جديد، تخلق أزمة في العلم، ومن هذه الأزمات تنبثق النظرية العلمية الجديدة، التي تغير تقاليد البحث ومفاهيمه العلمية، فما يحدث من إنتقال إلى نموذج إرشادي جديد هو الثورة العلمية.[3]

وإن إتفاق فيرابند مع كون في بعض جوانب فلسفته، لإعتقادهما بعدم قابلية النظريات العلمية للمقايسة، لأن كل نظرية لها خصائصها وسماتها مما يجعلها تختلف عن النظرية الأخرى، وهذا لم يمنعه من القول أن بعض أفكار كون غامضة، وتحتوي على الكثير من اللغو والخلط، بل وأساءت كثيرا إلى فلسفة العلم حيث يقول: "...لم يحدث من قبل أن سيطر على كتابات فلسفة العلم هذا الحشد من المؤلفين العجزة، غير الأكفاء أو التافهين، فتوماس كون يشجع أولئك الذين ليس لديهم أدنى فكرة عن سبب سقوط حجر من أعلى إلى أسفل، أن يتحدثوا بثقة وتأكيد عن المنهج العلمي، وأنا لا أعترض على عدم الكفاءة وإنما يأتي اعتراضي حينما تقترن عدم الكفاءة والثقة العمياء في الذات". [4]

يزعم فيرابند أن التصور الذي جاء به كون حول ما يسميه البراديغم، ما هو إلا شكل من أشكال السلطوية، حيث يفرض فيه المجتمع العلمي سلطته بتحديد نموذج إرشادي معين، يوصف على أنه موضوعي علمي، في حين أن ما يقدمه النموذج هو محاولة من بين المحاولات التي تضمن له سمة التفضيل والتميز العلمي، وتمكنه من استبعاد النموذج القديم،

---

[1] توماس كون، بنية الثورات العلمية، ترجمة شوقي جلال، عالم المعرفة، د ط، د ب، 1992، ص، ص 11،12.

[2] توماس كون وآخرون، مقالات نقدية في تركيب الثروات العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي، دار المعرفة الجامعية، د طن الإسكندرية، 2000، ص 83.

[3] يمنى طريق الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص 354.

[4] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 18.

وإقصائه بحجة عدم قدرته على حل هذه المشاكل القائمة في العلم، إن هذا الطرح الذي يقدمه كون يجعل مسيرة العلم داخل قوالب جامدة، تعرقل حركته التطورية، وتقف عاجزا أمام الإبداع الفردي. [1]

ويرفض هذا الفيلسوف تعددية كون للنماذج الإرشادية، التي سرعان ما يتم الإجماع والتوحيد بإتجاه نموذج إرشادي واحد، يكون هو الأحق بقيادة المجتمع العلمي، والتحكم في مجريات البحث العلمي، بينما التعددية التي ينشدها فيرابند قائمة على الفوضوية ولا سلطوية، لا تؤمن بنظرية واحدة ولا تتقيد بقواعد، وإن التسلط الذي يحيط به كون نموذجه الإرشادي لا يتماشى مع روح الحرية والتعددية. [2]

يرفض فيرابند السلطة التي يمارسها المجتمع العلمي، ويعيب عليه إقصائه للبدائل الأخرى، فالنموذج الإرشادي ما هو إلا نتاج مختلف المذاهب الفكرية، في مرحلة العلم الغير ناضج حسب تفسير كون، ومن ثم فإن هذا الإقصاء لا يوجد ما يبرره، ولهذا يرفض ما يسمى المجتمع العلمي، ويحاول في المقابل الدعوة إلى المجتمع الحر، الذي يؤمن بحرية الأفكار، ولا يخضع لأي قواعد منهجية. [3]

إن العلم في نظر فيرابند ليس أفضل من أنواع المعرفة الأخرى، وهو لا يسير وفق خطة منهجية ثابتة سلفا كما يعتقد كون، بل هو نتاج مجموعة من النشاطات الإنسانية المتمثلة في الثقافة والتاريخ الإنساني، والخبرات والمعتقدات وغيرها من الممارسات المعرفية التي تشمل مجالات متعددة ومتنوعة، وقد يتم تلقيها من الأفكار البسيطة المتداولة في حياتنا اليومية وتكون صدفة، لذا يدعو فيرابند لإقتناء أكبر عدد من النظريات تماثلا لنظريته الفوضوية، التي تستند على مبدأ كل شيء جائز ومقبول، طالما بإمكانه حل المشكلات المطروحة في العلم.[4]

---

[1] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 156.

[2] نفس مرجع، ص 155.

[3] نفس المرجع، ص 156

[4] يمنى طريق الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص 414.

4) نقد العقلانية الميتودولوجية "إمري لاكاتوس":

إمري لاكاتوس (1922-1974) فيلسوف علم كان له تأثير كبير على حركة الفكر العلمي والفلسفي، يعد أحد أقطاب الإتجاه العقلاني بطابعه العلمي، إقترح نموذجا مخالفا لما إقترحه فلاسفة عصره، يتمثل في "ميتودولوجيا برامج البحث العلمي" ويعتبرها البديل الأمثل في تفسير النظريات العلمية، مستعينا بتاريخ العلم كشرط أساسي لتقدم المعرفة العلمية.[1]

يرى لاكاتوس أن الميادين العلمية تتسم بتعاقب البرامج البحثية، وكل من البرامج البحثية تلك يتحول من تقدمي إلى متهالك، يتم إحلال برنامج أكثر كفاءة بدلا منه، برنامج يكون قادرا على التلائم مع التنبؤات الجديدة التي واجهها سابقيه، وهكذا يكون التقدم العلمي في نظر لاكاتوس عبر البرامج البحثية، لأنها تمثل مجموعة من إفتراضات عن العالم.[2]

إن ما قدمه إمري لاكاتوس من آراء حول فلسفة العلم، أعجب فيرابند لكن في جانب من جوانب أطروحاته، ورغم التقارب والإتفاق الموجود بين كلا الفيلسوفين وهذا يظهر جليا في تصريحاته في بعض مؤلفاته، أنه كان يريد أن يقوم بمشروع بحث علمي مع لاكاتوس، ولقد كان يقصد بهذا المشروع إغناء فلسفة العلوم من خلال جدلية قائمة بين العقلانية والفوضوية.[3]

إنه رغم هذا التقارب الفكري إلا أنه لم يسلم مشروعه العلمي من الإنتقادات اللاذعة وإن كانت أقل حدة من تلك التي وجهها لسابقيه، فلقد رافع فيرابند ضد العقلانية في كتابه "ضد المنهج" الذي كان في البداية مشروعا سينجزه رفقة لاكاتوس حول العقلانية، بحيث كان الإتفاق بينهما أن يتقاسما الأدوار، حيث يقوم لاكاتوس بالدفاع عن العقلانية وإعادة صياغتها، وإرجاع صديقه فيرابند، كما يقول هو نفسه إلى لحم مشوي، كتعبير عن قساوة النقد الذي كان سيجمعهما، لكنه لم يكتمل هذا المشروع نظرا للموت المفاجئ لإمري لاكاتوس، لقد كان الكتاب

---

[1] شادلي هواري، فلسفة اللانعقول، مرجع سابق، 159.

[2] أليكس روزنبرج، فلسفة العلم مقدمة معاصرة، ترجمة أحمد عبد الله السماحي وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2019، ص 301.

[3] توفيق بن وهلة، مقالة في اللامنهج مقاربة بول فيرابند، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد 16، العدد 02، 2019، جامعة سطيف 2، ص 126.

في أصله رسالة بعث بها فيرابند إلى لاكاتوس حملها كل الشراسة، مستبقا إجاباته التي توقع أن تكون أكثر شراسة منه، وهكذا جاء الكتاب منقوصا لوضوح التعبير عن نقيض القضية التي كان ينويان تناولها تناولا متعارضا، الأول يدافع ويحاول تطهير العقلانية وما تضمنه من نتائج إبستيمولوجية ومنهجية، والثاني يحطم العقلانية وينقدها.[1]

إن دفاع لاكاتوس عن العقل والعقلانية والموضوعية معتبرا العلم أرقى أشكال المعرفة بحكم شمولية المنهج المتبع، جعلت فلسفته تأخذ منحى دوغمائي، حيث قام بإقصاء الكثير من المعارف بحكم أنها غير عقلانية، إن موقف فيرابند من عقلانية لاكاتوس كان لا يختلف كثيرا عن سابقيه، فلقد ناهض كل المحاولات التي تسعى إلى عقلنة الممارسات العلمية، فهو يرى بأن العلم مشروع فوضوي، لا يخضع لقواعد موضوعية. [2]

ويعترض على سيطرة العلم وإحكام نفوذه على مجالات الحياة، عن طريق فرض منهج علمي معين، الذي يستبعد كل شيء غير علمي من دائرة العلم، حيث يقول: "ليس العلم نظاما معرفيا مقدسا يستلزم الكفر بما عداه، إنه نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى"[3]، بمعنى أنه يرفض كل تمييز بين العلم والمعارف الإنسانية، فالعلم في حد ذاته هو وليد إكتشافات إنسانية، مرتبطة بالتاريخ والثقافة الإنسانية.

إن تقييد البحث العلمي ووضعه تحت سلطة قواعد عقلانية، يحد من روح الإبداع والإنجاز في العلم، ويفقده قيمته النقدية، فالإجماع برأي واحد بشأن منهج واحد، يناقض طبيعة النشاط العقلاني على الأصالة[4]، بمعنى الميتودولوجيا التي أقامها لاكاتوس على حد قول فيرابند، أخفقت في تقديم خطوط رئيسية قد تفيد العلماء في إرشادهم لفعالياتهم، فهي لم تقم بدور الموجة للعلماء، كما أكد أنه من غير المجدي أن نحول العلم لمجموعة من القواعد

[1] لخضر مذبوح، مرجع سابق، ص، ص 488،489.

[2] بوصالحيح حمدان العقلانيّة العلميّة المعاصرة وانتقاداتها، مرجع سابق، ص111.

[3] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص 414.

[4] ناصر هشام محمد، مدخل إلى فلسفة العلوم، دار الجوهرة، ط 1، القاهرة، 2015، ص 414.

الميثودولوجية، فقيمته العلمية لا تكمن في قواعده، أو منهجه ونتائجه، وإنما تتحدد بتعدد وتنوع أرائه ونظرياته، وزيادة محيط البدائل لديه.

المبحث الثاني: الأسس الإبستيمولوجية للاعقلانية العلمية عند فيرابند

1) إشكالية العلاقة بين العلم واللاعقلانية:

لقد كان التساؤل حول معرفة ماهية العلم، وكيف يعمل، وكيف يؤثر على حياتنا، من ضمن إهتمامات فيرابند، الذي كرس حياته لمعالجة هذه القضايا، وهذا يظهر جليا في مؤلفه "طغيان العلم"، الذي كان عنوانه الأساسي ما المعرفة وما العلم، من هنا بدأ يتوغل الشك في العلم، والمطالبة بإعادة النظر في مناهجه، ونتائجه العلمية وقيمته الموضوعية، هذا العلم ذاته الذي كان يسلم بمطلقيته، ويقينيته لقرون مديدة في فلسفة العلم، إلا أنه مع ظهور الاتجاهات اللاعقلانية أصبح في دائرة الشك، خاصة مع فيرابند الذي أخذ على عاتقه دراسة العلم، وإعادة صياغة أفكاره ومفاهيمه، ليكون في طليعة الإتجاهات المعاصرة.[1]

وكان الهدف منذ ذلك تقويض كل ما هو مطلق في العلم، لأنه أصبح قائما على مسلمات غير مبررة، ومنها أن الحقيقة العلمية هي وحدها الحقيقة الثابتة، إن هذا التصور مبالغ فيه، فالعلم لم يكن أبدا نتاج قواعد ثابتة، بل كان محصلة معارف إنسانية ذات طابع اجتماعي، وثقافي وميتافيزيقي، وإن نتائجه التي حققها في جميع مجالاته، تدين بشكل كبير إلى معارف غير علمية، هي نتائج معارف إنسانية قديمة، لا تنتمي إلى مضامر العلم.[2]

يعتقد فيرابند أنه يجب على العلم التحرر من قيود، وسلطة العقلانيات العلمية المنهجية التي يفرضها فلاسفة العلم، وفي مقابل ذلك يدعو إلى تأسيس وبناء المعرفة العلمية، استنادا إلى تاريخ المعرفة الإنسانية، بكل أشكالها ومهما كانت طبيعتها، وفقا لشعاره "كل شيء مقبول"، الذي يشير إلى أن العلم يجب أن يستقي أفكاره، ونظرياته من الإنسانيات والفنون، وليس من كل ما هو علمي فقط.[3]

---

[1] بول فرابند، طغيان العلم، مركز دلائل، ط1، الرياض، 1438، ص 17.

[2] بوصالحيح حمدان، إشكالية العلم بين الموضوعية والإيديولوجيا في فلسفة "بول فيرابند"، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 1، العدد 1، 2013، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، ص 114.

[3] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع سابق، ص 414.

إن اللاعقلانية التي ينادي بها لا تلغي العلم، وإنما ترفض تلك السلطة المعرفية للمنهج الواحد، وتسعى لتصحيح المعرفة العلمية، وتحريرها من كل قيود المنهج العلمي، فالعلم في رأيه لا يمكن أن يكون رهين منهج واحد، ولهذا يرفض حصر الممارسة العلمية في منهج ثابت، فقواعده الصارمة تعرقل تقدم العلم.[1]

لهذا يرى أن العلم لا يمتاز بمناهجه ولا بنتائجه، فيجب إنتزاعه من قواعده الثابتة والجامدة التي وضعتها العقلانية الكلاسيكية، من أجل خلق مجتمع به تعددية من التقاليد، وإن هذه الأخيرة التي يقصدها هي تلك العلوم الإنسانية كعلم التنجيم والسحر، والطب التقليدي والحكمة الشعبية، والأساطير القديمة والأديان وغيرها من الممارسات المعرفية المختلفة التي من شأنها أن تقدم حلول لنظرتنا للعالم.[2]

ويمكن القول أن إشكالية العلاقة بين العلم واللاعقلانية هي تشبه علاقة الهدم وإعادة بناء وتقويض كل ما هو متعارف عليه، واللاعقلانية جاءت لتهدم الأسس التي يقوم عليها العلم، من ثم تقوم بإعادة بنائه من جديد وفق أسس صحيحة، فلقد ناهض الإتجاه اللاعقلاني ضد كل الميتودولوجيات العقلانية التي كانت تحاول عقلنة الممارسة العلمية، من خلال إخضاعها لقوانين وقواعد منطقية ثابتة، فقط من أجل إرضاء رغباتهم ومخططاتهم الإيديولوجية، التي كانت تسعى لجعل المعرفة العلمية هي أساس معرفتنا للعالم، وكل ما عداها لا يصلح أن يكون علما، وهي بهذا ألغت تاريخ الإنسانية من دائرة العلم، وأصبح بذلك رهينة للمنهج، إن هذا التصور هاجمه فيرابند ورافع ضده حيث يقول: "مهما بدت لنا قواعد المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية، فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد، وإنما تبنى عكسها"[3]، بمعنى في هذا القول دعوة صريحة إلى جعل العلم مفتوحا على كل

[1] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 288.

[2] خالد قطب، مرجع سابق، ص 33.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 12.

المناهج، ففهم طبيعته في نظره، يستوجب تطبيق مناهج متعددة، لهذا دعا إلى ما يعرف بالميتودولوجيا المفتوحة القائمة على التعددية المنهجية.[1]

2) مفهوم النظرية العلمية عند فيرابند

توصف النظرية العلمية بأنها نموذج للمعرفة العلمية، وتعتبر موضع إهتمام العديد من فلاسفة العلم الكلاسيكيين والمعاصرين، فليس هناك فيلسوف علم إلا وله تصوره الخاص عنها، ونجدها في التصور المعاصر تدل على إفتراض مسبق، يحدد رؤيتنا للعالم.[2]

ولهذا يرى فيرابند أن النظرية العلمية، ليست سوى إفتراض مسبق يحدد نظرتنا وإدراكنا للعالم والإنسان، وإن مصطلح النظرية العلمية في نظره يختلف على ما هو متعارف في الاتجاهات العقلانية الكلاسيكية والنقدية، فإن معظم هذه الاتجاهات قد فشلت في دراسة النظريات العلمية ومعالجتها من جهة، وعجزها عن التعبير عما يحدث داخل العلم من جهة أخرى.[3]

يوضح لنا هذا الفيلسوف أن نظرية المعرفة العلمية الغربية، هي نظرية أداتية، تهدف إلى عقلنة الممارسة العلمية، والسيطرة على الطبيعة والإنسان معا، وحجته في ذلك أنها نظرية ذاتية، تعطي الأولوية للذات الغربية، التي ترى العالم من خلالها فقط[4]، إن هذا التصور يوضح مدى تسلط هذه الإتجاهات، فلقد جعل في نظره العلم أداة لخططهم ومعتقداتهم الإيديولوجية، حيث توجه كل الإهتمام نحو المعرفة العلمية وجعلوها نظرية مرتبطة بالخبرة والتجربة، وفي المقابل قاموا بإلغاء كل المعارف الإنسانية، وصنفوها ضمن المعارف خالية المعنى لكونها لا ترتقي إلى مستوى العلم، إلا أن فيرابند لم يأخذ بهذا التوجه، فكان ضد كل منهجية، فالمعرفة العلمية هي جزء من النشاط الإنساني، وإن النظريات العلمية في نظره وليدة إكتشافات إنسانية، لها خلفيتها الإجتماعية ولا يمكن أن تدرس بمعزل عنها، حيث يقول: "إن مشاريع العلم هي

[1] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 288.

[2] خالط قطب، مرجع سابق، ص 15.

[3] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها (مرجع سابق)، ص 123.

[4] خالط قطب، مرجع سابق، ص 11.

بصورة حاسمة إنجازات إنسانية...العلم بعد كل شيء إنه نشاط إنساني...لذلك فكل العلوم هي علوم إنسانية ...لا يمكن تعيين خصائصها بمعزل عن الثقافة الإنسانية والتاريخ الإنساني".[1]

وعليه يرى فيرابند أن النظريات العلمية، ليست سوى طرائق معينة في النظر إلى العالم، وحسب إعتقاده، فإن طريقة النظر إلى الكون تختلف من ملاحظ إلى آخر، وهذا الإختلاف يرجع إلى تنوع المعارف والإعتقادات، وتعدد النظريات وفروض الملاحظة ذاته تتغير من عالم إلى آخر، فما يراه الملاحظ في جانب كبير منه يتوقف على تجربته الماضية، ومعارفه وخبراته، وحالته العامة، أي أن العالم أثناء دراسته للنظرية العلمية، يعتمد على خبرته الشخصية ومعتقداته وثقافته الإنسانية، فهذا الجانب الذاتي جزء من العالِم لا يستطيع إنكاره أو فصله عن الظاهرة العلمية.[2]

وبهذا يعطي فيرابند تصور جديد للنظرية العلمية، يعارض فيه التصورات العقلانية فيقول: "عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار الساسية، والمذاهب الدينية ..."[3]، بمعنى أنه إعتبر النظريات العلمية لا تقتصر على ما هو علمي فقط، بل تشمل كذلك المعارف الإنسانية، لأنها تقدم معرفة لا يمكن إنكارها، وإن تعدد النظريات وإختلاف وجهات النظر، مفيد للعلم وحافز للإبداع والإبتكار، ولهذا نجده يؤكد على أهمية الأساطير في مقابل النظريات العلمية، ويزعم أنها أكثر صدقا وتقدما، وهي تعتبر كأحد المنابع الأساسية للعلم، وإنه يساوي بين العلم والأسطورة، ويذهب إلى أبعد من ذلك فيفضلها على المعرفة العلمية حيث يقول: "إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء في كافة العصور، وأن مخترعي الأسطورة الأوائل بدئوا الحضارة بينما اكتفى العلماء بتغييرها، وليس إلى الأفضل دائما"[4]، هذا القول تصريح واضح لفيرابند، يؤكد فيه على دور التاريخ

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص 433.

[2] خالد قطب، مرجع سابق، ص 15.

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 22.

[4] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 31.

الإنساني في التطور العلمي، وأن النظريات العلمية لا يمكنها أن تتقدم إلا إذا إتبعت التعددية المنهجية.

3) مبادئ النظرية العلمية عند فيرابند

أ/ مبدأ الوفرة: إنه مبدأ يؤمن بتعدد البدائل النظرية، وتنوع وجهات النظر الأخرى، ويشمل على حد تعبير فيرابند إختراع وتطوير نظريات لا تتسق مع وجهات النظر المقبولة عالية التأييد وتحظى بقبول عام.[1]

إن زيادة محيط البدائل النظرية في المعرفة العلمية، لا يمثل عائقا أمام تقدم العلم، بل هو المبدأ الأمثل لدراسة العلم وفهم مسيرته، من خلال إستخدام نظريات بديلة ومتعددة تعمل على تطوير قدراتنا العقلية.[2]

ولهذا يدعوا إلى ضرورة الأخذ بأكبر قدر ممكن من النظريات، حتى إذا كانت هذه الأخيرة غير متسقة مع بعضها البعض، فلكل واحدة منها أنصار مدافعون عنها، يعتقدون بصحتها، وإن هذا الإختلاف ما بين النظريات، يسمح بزيادة وجهات النظر، وتنوع البدائل، التي تساعد في الإدلال بتفسيرات مختلفة للمعرفة العلمية، من شأنها أن تفيد معرفتنا، وتقدم حلول للحقيقة والعالَم.[3]

ويستخدم فيرابند كلمة النظرية ليدل على معاني عديدة بصورة عمومية، لتشمل المعرفة الإنسانية، حيث يقول: "عندما أتحدث عن النظريات فأنا أعني أنها تتضمن الأساطير والأفكار السياسية، والمذاهب الدينية ... كل ما هو موجود".[4]

بمعنى أن هذا القول دعوة صريحة إلى ضرورة الأخذ بأكبر عدد من النظريات، لأن في نظره كل نظرية من الممكن أن تكون مفيدة بصورة أو بأخرى، فقط يجب ترك مساحة لها لتثبت نفسها ولتتبلور في صورة تسمح لها بالتقدم، وإن مبدأ الوفرة وتعدد البدائل النظرية هو

[1] المصدر نفسه، ص 22.

[2] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقاداتها، مرجع سابق، ص 20

[3] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، (مصدر سابق)، ص 22.

[4] المصدر نفسه، ص 22.

المبدأ الأفضل للعلم، في حين أن الإتساق والإنتظام يحد من قدرته النقدية ويعوق الإبداع والإبتكار، فالمعرفة العلمية ليست سعيا نحو صورة مثالية، بل هو الزيادة المستمرة في محيط البدائل".[1]

أي العلم لا يتقدم وفقا لمنهجية صارمة، وإنما يتقدم عندما يتوفر على أكبر قدر من البدائل النظرية، ولهذا يرفض التمييز والمفاضلة بين النظريات، وحجته في ذلك أن كل شيء مقبول ومتاح في النظرية العلمية، مادامت أي فكرة تقدم حلول للمشاكل المطروحة في العلم، وإن تلك الأفكار الأكثر سخافة والتي لا ترتقي للعلم، كما تعتقد العقلانية التجريبية، هي الأكثر مفاجئة تؤدي إلى إكتشافات عظيمة، حيث يقول: "إن الذين يعتقدون أن الأشياء الجديدة لا تكشف إلا بالتفكير ضمن مسار محدد مخطئون، فلا يجب أن تحد من مخيلتك، لأن الفكرة السخيفة قد تقودك إلى رؤى جديدة وإلى إكتشاف جديد ونتيجة قوية جدا".[2]

ب/ مبدأ التشبث: يدعو هذا المبدأ إلى النصح بإختيار نظرية تعد بالوصول إلى أفضل النتائج المثمرة، والتشبث بها حتى إذا كانت تواجه صعوبات[3]، إن هذا المبدأ يتمثل في الإبقاء على جميع النظريات التي لا زالت خصبة، وتقدم تنبؤات جديدة والتمسك بها على الرغم من الصعوبات التي تواجهها، إن هذا المبدأ حسب فيرابند يسمح بالمحافظة على النظريات الواعدة على الرغم من التحديات التي تواجهها، لأن لا بد من إعطائها فرصة لإثبات فعاليتها وخصوبتها، إذ لا ينبغي تكذيبها بمجرد ظهور حالات تفندها مثلما يدعي بوبر، ويرى أن هذين المبدأين نابعان من صميم النشاط العلمي.[4]

ج/ **مبدأ المقايسة:** هو الإعتقاد بأن النظريات العلمية لا يمكن مقارنتها بعضها ببعض، ولا يوجد سبب لتفضيل نظرية على أخرى، وإن فكرة اللامقايسة فكرة أصيلة، تعبر عن ملامح الفكر المبدع الخلاق، تستخدم لتعليل إفتقاد التفاهم بين الثقافة العامة والعلم، ويجعل فيرابند

[1] بوصالحيح حمدان، العقلانيّة العلميّة المعاصرة وإنتقاداتها، ص 127.

[2] بول فيرابند، طغيان العلم (مصدر سابق)، ص 210.

[3] نفس مصدر، ص 210.

[4] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 24.

اللامقايسة ليست بين النظريات فحسب، بل بين الأنماط المعرفية، فلا يعود ثمة مبرر للإدعاء بالأفضلية المطلقة للعلم على أشكال المعرفة الإنسانية الأخرى.[1]

يرى فيرابند أن وفرة النظريات المتنافسة والمتعارضة أو الغير متسقة هي التي تحقق للعلم التقدم، فكل شيء في تصوره ينبع من اللاإتساق، وهو القاعدة الأساسية لقبول أو رفض النظريات العلمية، ويدعو إلى ضرورة الأخذ بالنظريات اللامتسقة وجعلها القاعدة الأساسية عند قبول أي نظرية علمية، أو رفضها.[2]

إن ما يقوله فيرابند عن عدم قابلية النظريات العلمية للمقايسة، هو من أحد النقاط الهامة في تحليله للعلم، وسمة هامة في اللاعقلانية العلمية التي ينشدها، وهي لا تمثل أي مشكلة للعلوم المختلفة أو لسواها وإنما تجعل العلم في تقدم مستمر ولا تحد من قوته النقدية.[3]

[1] يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين (مرجع سابق)، ص 417.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 23.

[3] خالد قطب، مرجع سابق، ص 25.

المبحث الثالث: الفوضوية الإبستيمولوجية ودورها في تطور العلم

1) مفهوم الفوضوية الإبيستيمولوجية عند بول فيرابند

فوضوية Anarchisme يرادف مصطلح فوضوي، Anarchie[1]، وإن مصطلح فوضوي "Anarchie " مكون من شقين، الشق الأول يعني النفي "AN"، والثاني يعني السلطة "archie"، وعليه يكون معنى المصطلح اللاسلطة، وأما المصطلح العربي فوضى فهو يحمل كذلك نفس المعنى، فقوم فوضى تعني أنهم متساوون، لا رئيس لهم.[2]

ويشير لالاند أن مفهوم الفوضى والفوضوية، إستعمل للمرة الأولى مع برودون، وتعرف الفوضوية في قاموس لالاند بمعنيين:

-إختلال النظام بسبب غياب السلطة المنظمة.

- مذهب سياسي أو نظرية سياسية، ذات تنوعات ملحوظة، وتمكن سمتها المشتركة في رفض كل نظام دولة، يفرض نفسه على الفرد.[3]

وتعتبر الفوضوية حسب معجم صليبا: مذهب سياسي يدعو إلى إلغاء رقابة الدولة، وإلى بناء العلاقات الإنسانية على أساس الحرية الفردية.[4]

يمكن القول أن مصطلح الفوضوية هو مصطلح سياسي، يعني ضد النظام والترتيب، ويرفض كل أنواع السلطة، ويبدو أن الفيلسوف بول فيرابند قد تأثر بهذا المصطلح، ولهذا سمي بالفيلسوف الفوضوي، وكذا أطلق على فلسفته بالفلسفة الفوضوية، لأنها تدعو إلى الحرية وترفض كل أنواع السلطة الفكرية، ولقد إستقى هذا اللفظ من مجال السياسة، وأضافه إلى ميدان العلم، ودمجه ضمن المصطلحات الفلسفية وبالأخص في فلسفة العلم، وأضفى طابعا علميا، ولقي هذا المصطلح في نظر فيرابند رفضا كبيرا في المجال السياسي، حيث يقول: "إذا كانت

---

[1] أندري لالاند، مرجع سابق، ص 67.

[2] رجب بودبوس، الفوضوية، معهد الأنماء العربي، ط1، د (ب)، 1989، ص 8.

[3] أندري لالاند، مرجع سابق، ص، ص 67،68.

[4] جميل صليبا، مرجع سابق، ص 169.

الفوضوية غير مرغوبة في مجال السياسة، فإنها أفضل علاج لنظرية المعرفة، بل ولفلسفة العلم ذاتها".[1]

ولما كانت الفوضوية السياسية تعني رفض كل نظام وسلطة دولة، وتنادي بالحرية، لأنها ترى في الدولة وقوانينها أكبر عائق للفرد، الأمر ذاته في نظر فيرابند ينطبق على المعرفة العلمية، فلا يجب أن يكون العلم أسير منهج محدد[2]، لأنه مشروع "فوضوي" Anarchie، كل المناهج مقبولة ومتاحة فيه، تبعا لشعاره "كل شيء مقبول Anything goes "[3]، ويتضح هذا في كتابه "ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة" حيث يخبرنا أنه مشغول بمشروع فوضوي، يناقش فيه مسألة عدم وجود منهج مميز للبحث العلمي، وذلك إنطلاقا من إعتقاده أن هناك مناهج عديدة مختلفة ومتنوعة لا حصر لها، وكل محاولة منها ذات قيمة وفائدة، وبهذا ينكر أن يكون هناك منهج علمي، وموضوعي يتميز به العلم، ويعتقد أنه لو حصل تقدم في العلم قابل لأن يدرك، فهو حتما سيكون نتيجة تحطيم كل قاعدة يمكن تصورها للعقلانية.[4]

لقد قدم فيرابند مقارنة لم تعرف الأبستمولوجيا لها مثيل، خاصة عندما حرر العلم من قيود المنهج، ونادى إلى الفوضوية المعرفية theoretical [5]، من منطلق أن العلم ذاته في رأيه عمل فوضوي، حيث يقول: "العلم أساسا عمل فوضوي، والفوضوية أكثر إنسانية من العلم، لمرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام"[6]، أي يؤكد على أن الفوضوية شكل من أشكال المعرفة العلمية، وهذا من منطلق أن العلم ذاته في رأيه

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 11.

[2] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 286.

[3] يمنى طريق الخولي، المنهج العلمي(مرجع سابق)، ص 199.

[4] بول فيرابند، العلم في المجتمع الحر (مصدر سابق)، ص 6.

[5] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 286.

[6] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 11.

عمل فوضوي، لا يخضع لقواعد منهجية ولا لسلطة فكرية، وإنما هو مشروع حر، يقوم على التعددية المنهجية، وعلى تنوع النظريات ووجهات النظر.

ويوضح هذا الفيلسوف أسباب إختياره مصطلح الفوضوية ليأسس عليها فلسفة العلم الجديدة، فيصرح أنها مصطلح يعني محاولة لزيادة التحرر من كل القيود، سواء كانت قيود علمية أو إجتماعية، أو سياسية، بهدف الوصول إلى حياة كاملة وذات قيمة، وهذا لن يحدث إلا برفض كل المعايير الكلية والإتجاهات الصارمة، وقوانين المنهج العلمي، بما فيها قوانين العقل ذاته، والقول بالفوضوية، فيقول: "إن الفوضويين المحترفين يقفون ضد أي نوع من التقيد، ويطالبون بأن تتاح للفرد الفرصة لكي يتطور بحرية، وألا تعرقله أي قوانين أو واجبات أو تعهدات، وهم بذلك يستوعبون دون أن يرتبطوا بكل المعايير التي يفرضها العلماء...".[1]

2) مفهوم النسبية عند فيرابند:

النسبي Relative في مقابل المطلق، والنسبية "Relativisme" مذهب يقر أن كل معرفة إنما هي معرفة نسبية، والمقصود بنسبية المعرفة أن العقل الإنساني لا يحيط بكل شيء، والمطلق لا يمكن إدراكه.[2]

ورد مفهوم النسبية في المعجم الفلسفي ليدل على إحدى وجهات النظر الفلسفية، التي ترى أن قيمة ومعنى المعتقدات الإنسانية، والسلوك الإنساني ليست لها مرجعية مطلقة تقوم بتحديدها، ويستخدم الفلاسفة مصطلح النسبوية للدلالة على المنحى الفلسفي، الذي يقول بعدم وجود حقيقة مطلقة.[3]

والنسبية نزعة عرفت لدى الأقدمين اليونان مثلا عند السفسطائي بروتاغوراس الذي يرى أن الإنسان مقياس كل شيء، والحقيقة تتغير بتغيير الأفراد حسب الموقف والحالة، وبهذا

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 34.

[2] جلال الدين سعيد، مرجع سابق، ص 199.

[3] مصطفى حسيبة، مرجع سابق، ص 623.

المعنى لا تظل الحقيقة مطلقة، ولا تعدو أن تكون حقائق موضوعية، بل تتعدد الحقيقة بتعدد الأشخاص ومن هنا تظهر بوادر النسبية.[1]

وتعتبر النسبية إحدى أهم الاتجاهات المعاصرة في فلسفة العلم، التي شنت حملة ضد كل التصورات والمفاهيم التي تدعي موضوعية العلم، فتسعى إلى تقويض كل ما هو مطلق في العلم، ويعتبر فيرابند أحد أبرز الفلاسفة النسبيين متأثر بالنزعة النسبية، يرى أن العلم فوضوي لا يخضع للنظام، ولا يعتمد على المطلقية والموضوعية، لأن المعرفة تختلف وتتعدد من شخص لآخر، ويبدو أن فيرابند إستقى فكرة النسبية من بروتوغاوراس الذي أعجب بمقولته "الإنسان مقياس الأشياء كلها"، فيثني على نسبيته لأنها تهتم بفكرة تعدد القيم، والتقاليد دون أن ترفض رؤية الفرد الذاتية، أو عاداته هي الوحيدة الصادقة، وهي تشكل محور فلسفته التي ما يكف يرددها في كتاباته، وإن النزعة الشكلية النسبية تتبدى عنده من خلال هجومه ودفاعه عن نفس المبدأ، ويتضح هذا الجانب النسبي في قوله: "المعرفة الكلية غير ضرورية وغير متاحة، وكل ما هو متاح وجهات نظر مختلفة، تكون صادقة من بعض الجهات فقط، ولا وجود لأي آراء لا ترتبط بتقليد معين".[2]

بمعنى أن المعرفة لا يمكن أن تكون موضوعية ومطلقة، لأنها في أغلب الأحيان ليست متاحة، فليس كل ما يطرحه العلم متاح، وإن كل ما هو متوفر مجموعة آراء مختلفة، يمكن أن تكون صادقة في بعض جوانبها، وإن مجمل آرائنا هي لا تنفصل عن معتقدانا ومعرفتنا الإنسانية، فالعلم هو نشاط إنساني وإن نسبية فيرابند تنكر كل المعايير الكلية والموضوعية في العلم، فالحكم على نظرية علمية ما بأنها صادقة أو كاذبة، هو حكم يتغير من جماعة علمية ما بأنها صادقة أو كاذبة، هو حكم يتغير من جماعة إلى أخرى، وفي المقابل يدعو إلى تنوع القيم وتعدد المعارف، فليس هناك علم أفضل من علم، كل المعارف مفيدة طالما تقدم جديدا للعلم،

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 52.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 26.

وهذا ما عبر عنه في فلسفته حيث أنكر أفضلية العلم على أشكال المعرفة الأخرى، وإعتبره تقليدا من بين العديد من التقاليد الأخرى.[1]

ويمكن القول أن الفوضوية المعرفة عند فيرابند ماهي إلا صورة جديدة من صور النزعة النسبية[2]، وهذا يتضح في مؤلفاته، فهو يصف نفسه بالنسباوي المتحمس، وإن نسبيته مختلفة عن النسبيات الأخرى، حيث يقول: "إن النسباوية التي أقدمها هنا ليست عن المفاهيم concepts، وإنما عن العلاقات الإنسانية human relations، إنها تتعامل مع المشكلات التي تنشأ عن صراع الثقافات المختلفة أو الأفراد مع العادات والأذواق المختلفة".[3]

يعيب فيرابند بهذا القول على العقلانيين الذين إبتعدوا عن الحياة، إلى عالم المعرفة الآلية، فهم لا يضعون في إعتباراتهم هذه الثقافة أو تلك، جل إهتمامهم بالأفكار كفكرة الحقيقة والصدق، ولا يتساءلون أبدا كيف ترتبط هذه الأفكار بالوجود الإنساني، فقط يحاولون جعل الممارسة العلمية أكثر عقلانية.[4]

إن كل الأبحاث العلمية التي قام بها فيرابند في ميدان فلسفة العلم، تؤكد نزعته النسبية، وفي المقابل يرفض كل القواعد المنهجية وتصورات العقلانية التي تقيد حرية الإنسان في البحث، فالمفاهيم التي يسعى فلاسفة العلم إثباتها والدفاع عنها كالموضوعية والعقلانية والمنهج، كلها مفاهيم نسبية، لأنها متغيرة من نموذج لآخر ومن فيلسوف إلى فيلسوف، فتختلف معانيها حسب مدلولها السياقي الذي وردت فيه، وكل النظريات مفيدة فليس هناك نظرية أفضل من أخرى، جميعها متاحة لخدمة العلم.[5]

---

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 50.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 26.

[3] خالد قطب، مرجع سابق، ص 51.

[4] نفس المرجع، ص 51.

[5] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 189.

3) ضد أحادية المنهج:

عرف مفهوم المنهج في الحقبة المعاصرة من تاريخ الفلسفة، جدالا واسعا في الدوائر الابستمولوجية المهتمة بمشكلات العلوم، ومقتضيات الفكر العلمي على العموم، فكان الفيلسوف فيرابند أحد أهم فلاسفة العلم، الذي تعرض للمنهج بالنقد، فعمل على تقويض كل ما هو مطلق في المعرفة الإنسانية، بما فيها المعرفة العلمية، فرفض المنهج الصارم بكل قوة واعتبره معيقا للتقدم العلمي، ولعل من أعنف الهجمات التي شنت ضد محاولات البحث العلمي لصياغة مبادئ منطقية، وقواعد كلية ثابتة لعقلنة الممارسة العلمية، ما قدمه في كتابه "ضد المنهج: مخطط تمهيدي لنظرية فوضوية في المعرفة"، الذي صرح فيه بوضوح أن العلم لم يكن أبدا أسير منهج واحد محدد، بل هو مشروع فوضوي لاسلطوي، لا يعترف بأي سلطة، وكل المناهج يمكن أن تجدي فيه، طالما أنها تلائم طبيعة المشكلة المطروحة، وتؤدي إلى حلها وإضافة الجديد للعلم، في حين أن تقيد العلم بمنهج واحد، يعرقل الفكر ويحد من الإبداع، ويخنق روحه الضرورية للإنجاز.

يتساءل فيرابند ما إذا كان هناك منهج علمي، محدد بأطر وقواعد منهجية في العلم لا يمكن الحياد عنها، وإن الإجابة التي نحصل عليها تنفي أن ثمة منهج بالأساس، ذلك لأن العالَم الذي نريد استكشافه غامض وغير معروف، فكثير من الحقائق لا تزال مجهولة عنا، لذا وجب أن نتفتح على كل الإختيارات الممكنة، دون تحديدها مسبقا، ولهذا يفترض على العلماء أن تكون إختياراتهم قائمة على الحرية أكثر، يجب أن يحرروا أنفسهم من سجن الوهم الذي بنوه في ظل القول بصرامة المنهج، من أجل فهم العلم والوصول للحقيقة.[1]

لم يرفض هذا الفيلسوف المنهجيات الموجودة، وإنما طالب بتوفرها كلها في البحث العلمي، هو فقط ناهض ضد فكرة وحدة المنهج، وفي المقابل فتح المجال أمام جميع المناهج لتعبير عن نفسها، وهذا ما تأكده عبارة "كل شيء جائر" التي تعني أن كل شيء مقبول، وكل المناهج متاحة طالما تفيد البحث العلمي، حيث يقول: "إذا تأملنا التاريخ الماضي، فسوف نجد انه في

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 34.

مقابل كل قاعدة نريد الدفاع عنها، توجد ظروف يتحقق فيها التقدم بكسر هذه القاعدة، وهذا يعني أن مناهج البحث تقدم لنا في أحسن الأحوال قائمة مشوشة من القواعد التقريبية، وإن المبدأ الوحيد الذي يمكن أن نثق فيه في كل الظروف هو كل شيء يمر".[1]أي أن هذه القواعد التي يدعي العلماء بصرامتها وضرورة التقيد بها في العلم هي زائفة ولا أساس لها، لأنها لا تقدم للبحث العلمي جديدا، وإنما هذه المبادئ والمعايير من شأنها أن تضعف من قيمة العلم ونتائجه الموضوعية، فتاريخ العلم يثبت أنه يجب تجاوز هذه القواعد وعدم الأخذ بها حتى نصل إلى الحقيقة العلمية حيث يقول: "مهما بدت لنا قواعد المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية، فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد، وإنما تبني عكسها"[2]، وهذا يعني أنه يفتح المجال أمام العلم ليتقبل جميع أنواع المعرفة الإنسانية، سواء كانت علمية او غير علمية، والهدف من ذلك هو زيادة محيط البدائل في النظريات العلمية، وتقديم تفسيرات جديدة من شأنها أن تقدم حلول للمشاكل المطروحة في العلم، ولهذا يرفض فيرابند السلطة المعرفية للمنهج الواحد، لأنه مشروع منفتح ومتفرع إلى حد أن جميع المناهج يمكن أن تفيد فيه، فهذا التنوع والتعدد في المناهج ضروري للعلم من أجل الإبداع الخلاق، فالثبات والصرامة تحد من قدرته على الإبتكار، وأن حصر الممارسة العلمية في قوقعة المنهج الواحد يعرقل تقدم العلم، لأنه لم يكن أبدا نتاج قواعد منهجية محددة، وإنما كان محصلة لعملية البحث المستفيض المتشبع على أنماط المعارف الأخرى.[3]

ومن وجهة نظره فالمبدأ الوحيد الذي يمكن الدفاع عنه تحت أي ظرف هو مبدأ "كل شيء جائز" لأنه لا يكبح تقدم العلم فهو يعبر عن التعددية المنهجية، هذه التعددية التي ينشدها تقدم وجهات نظر مختلفة، وتأتي بالبدائل المعرفية، حيث يقول: "إن العقلانية التي أنشدها...إنها

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة (مصدر سابق)، ص 21.

[2] المرجع نفسه، ص 12.

[3] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 288.

بالأحرى زيادة محيط البدائل وإستخدام كل النظريات حتى تلك التي تراجعت منذ زمن بعيد وأصبحت في طي النسيان، لأنها ربما يكون بها عنصر يفيد معرفتنا".[1]

أي أنه يؤكد على ضرورة التحرر من قيود المنهج، فلابد أن تمتزج المعرفة العلمية بالمعارف الإنسانية الأخرى، كالأسطورة والفن والدين، فتنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، يفتح مجال البحث أمام أنماط وأساليب تفكير جديدة ومختلفة تساهم في عملية بناء معرفتنا، ولهذا يجب على رجل العلم أن يأخذ بتعدد النظريات، ويوسع مجال البحث ليشمل كل شيء فلا ينحصر في معرفة معينة، فالصرامة والثبات والانتظام، يضعفان من قوته النقدية، حيث يقول: "يمكن أن تكون فيلسوف العلم فقط إذا هيأت نفسك للتعامل مع نظريات متعددة بدلا من وجهة نظر واحد...فالتعددية النظرية سمة لكل معرفة تعلن أنها موضوعية".[2]

أي أنه يدعو العلماء أثناء دراساتهم للنظريات العلمية أن يتحرر من سجن القواعد التي يفرضها عليهم فلاسفة العلم، وفي المقابل يعتمدون على التعددية المعرفية، كما يشير إلى أن المناهج العلمية القائمة في فلسفة العلم لم يتوصل أي منها إلى حقيقة التقدم العلمي، ويؤكد أنه من الخطأ رد العلم إلى بعض القواعد الميتودولوجية البسيطة، نظرا لتعقد تاريخه، فالمنهج على مدى مساره التاريخي تعرض للنقد والتبديل والتغيير من قبل الفلاسفة، فإنه من العبث إخضاع العلم لقواعده، حيث يقول: "إن الفكرة القائلة بأن العلم يمكنه وينبغي أن ينتظم وفقا لقواعد ثابتة وشمولية هي في آن واحد فكرة مثالية وزائفة...إنها فكرة مضرة بالعلم لأنها تهمل الشروط الفيزيائية والتاريخية المعقدة التي تأثر تأثيرا حقيقيا في التغيير العلمي، لأنها تجعل علمنا أقل قابلية للتكيف وأكثر دوجماطية".[3]

إن دعوة فيرابند ضد أحادية المنهج، كانت نتيجة تفكير عقلاني نقدي متميز، هي دعوة صريحة تهدف إلى تحرير العلم من سلطة المفاهيم والتصورات التي تحكم سيطرتها عليه، لأنه

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 44.

[2] بول فيرابند، العلم في مجتمع الحر (مصدر سابق)، ص 7.

[3] خالد قطب، مرجع سابق، ص 45.

إرتأى أن مسار العلم لا يتقدم وفقا لهذه الصرامة المنطقية والثبات المنهجي، في حين إذا خضع إلى التعددية المنهجية يغدوا أكثر علمية وموضوعية، فالتعدد هو سمة العلم، وحجته في ذلك أن تاريخ العلم يبين أن أكثر فترات العلم ازدهارا هي تلك التي عرفت تعددا وتباينا في الرؤى والمناهج، وبالتالي فتعدد الطرق والمناهج يجعل البحث العلمي موضوعيا، ويظهر هذا في قوله: "...الطريقة التي تشجع التنوع هي الأسلوب الوحيد الذي يتوافق مع الرؤية الإنسانية".[1]

لقد سعى فيرابند إلى جعل العلم متاحا فيه كل المناهج، لأن طبيعته تستوجب تطبيق مناهج متعددة، لهذا دعا إلى ما يسمى الميتودولوجية المفتوحة، التي تعبر بإخلاص عن طبيعة العلم وحقيقته الفوضوية، كما أنها لا تقصي المعارف الإنسانية، وإنما تضعها داخل دائرة العلم، فيستقي منها ما يشاء في حدود ما يلائم المشاكل المطروحة في النظريات العلمية.[2]

[1] بول فيرابند، طغيان العلم (مصدر سابق)، ص 21.

[2] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 288.

نستخلص مما سبق أن بول فيرابند إطلق في بناء فلسفته، إستنادا على نقده للميتودولوجيات العقلانية العلمية المعاصرة، حيث قام بتقويض مفاهيم وأسس العقلانية التجريبية في فلسفة الوضعية المنطقية، معتبرا إياها ميتودولوجيا فاشلة، لأنها لم تفلح في دراسة النظريات العلمية، وعاجزة عن فهم منطق العلم، خاصة بإلغائها للميتافيزيقا، وكذلك توجه بنقده لعقلانية كارل بوبر، فإرتأى إلى أن قواعده المنهجية، خاصة مبدأ قابلية التكذيب، لا يقدم جديدا للعلم، فتكذيب النظريات وإستبعادها يلغي المعارف الإنسانية من دائرة العلم، كما أن عقلانية توماس كون وإمري لاكاتوس هي كذلك كسابقيها لم تسلم من النقد، لأنها فلسفات لا تفيد تقدم المعرفة العلمية.

وبذلك كانت الأسس الإبستيمولوجية لفلسفة العلم عند فيرابند إنبثقت لتوضيح العلاقة بين العلم والمعارف الإنسانية الأخرى، وتبين مدى أهمية دراسة النظريات العلمية في ضوء التاريخ الإنساني والثقافة الإنسانية، إن هذا ما ولد ما يسمى بالإبستمولوجيا الفوضوية، التي جاءت لإلغاء وحدة المنهج، معارضة بذلك لكل المفاهيم والتصورات التي تقوم عليها فلسفة العلم المعاصرة، داعية إلى إبستيمولوجيا جديدة ليس لها مثيل في حقل الممارسات العلمية، تؤمن بالنقدية المعرفية والنسبية وتناهض من أجل الحرية الفكرية.

الفصل الثالث : الأبعاد الإبستيمولوجية لفلسفة بول فيرابند

المبحث الأول : العلم باعتباره تقليد

المبحث الثاني: التعدد المعرفي "الفن، الدين، الأسطورة" ودورها في بناء العلم.

المبحث الثالث : رؤية تقييمية ونقدية لإبستيمولوجيا بول فيرابند.

لقد تناولنا بالحديث في الفصل السابق عن أسس ومنطلقات الفلسفة التعددية المهنجية لبول فيرابند، وسنعرض في هذا الفصل الأبعاد الإبستيمولوجية لفلسفة التي يندرج ضمنها عدة مباحث وهي كالآتي:

المبحث الأول عنوانه "العلم باعتباره تقليد" وقد أشرنا إلى أن العلم ماهو إلا تقليد من بين تقاليد متعددة للمعارف الإنسانية، فليس هناك ما يميزه عن باقي المعارف الأخرى، وإن ما يدعوا إليه العلماء من تفضيل للعلم ما هو إلا تقليد أعمى، وجب تجاوزه للمضي قدما في العلم.

أما **المبحث الثاني** فإرتئينا أن يكون عنوانه "التعدد المعرفي ودوره في بناء العلم"، وهنا أبرزنا دور المعارف الغير علمية كالأسطورة والدين والفن، ومدى قيمتها في البحث العلمي لما تقدمه من وجهات نظر متعددة ومختلفة، من شأنها أن تحل المشاكل المطروحة في العلم.

المبحث الثالث رؤية تقييميّة ونقدية لإبستيمولوجيا فيرابند، تطرقنا إلى مزايا هذه الفلسفة، وكذا العيوب والإنتقادات الموجهة لها.

المبحث الأول: العلم باعتباره تقليد

لقد كان التصور السائد للعلم حتى منتصف القرن العشرين، ليس شيئا غير البحث المهنجي عن المعرفة، وتميز بمنهجيته عن باقي أنماط المعرفة الأخرى، التي إعتبرها فلاسفة العلم تفتقد للتنظيم والثبات، وفقا لهذه النظرة كان المنهج هو العنصر الثابت، والأساسي في كل معرفة تريد أن تكون علما، هذا التقليد الذي وضعه الفلاسفة والعلماء أحكم قبضته على فلسفة العلم حتى أصبح العلم مجردا من كل المعارف الإنسانية. [1]

إن ما وصل إليه العلم من قدسية وسيطرة، وما شهدته فلسفة العلم من تناقضات وتحولات، جعل الفيلسوف المعاصر يعيد النظر في مبادئ العلم ونتائجه، وقوانينه لتكون في خدمة الإنسانية وهذا ما أبرزته إبستيمولوجيا فيرابند التي جاءت ضد كل الميتودولوجيات التي عرفتها الفلسفة المعاصرة، فلم يكتف بمناهضته ضدها بل إمتد إلى الطعن في مصداقية العلم، لأنه يقوم من وجهة نظره على مسلمات خاطئة، خاصة في إعتباره الخطاب العلمي هو الخطاب العقلاني الوحيد، وكون أن رأي العلماء هو وحده السديد والموثوق به، وأن العلم والتكنولوجيا كفيلان بحل مشاكل الإنسانية. [2]

يعترض فيرابند على هذا التصور الذي هيمن على ثقافة المجتمع المعاصر، أين أصبح العلم تقليدا راسخا، وإيديولوجيا تتبارى التيارات الفلسفية في حمايته والدفاع عنه، وحجته في ذلك قوله كما يلي:

"أصبح العلم فيه أيديولوجيا، حيث تبارت الدساتير القانونية في حمايته، وأقصت كل أنماط المعارف الأخرى، وجعلت من العلم نشاطا متميزا ومتفوقا على غيره من النشاطات الإنسانية، مما أدى إلى عملقة العلم وسطوته على كل شيء فأصبح وحشا كاسرا اقتحم حياة الإنسان، لذا علينا كبح جماحه قبل أن يصل إلى السلوك البشري فيكممه" [3]، بمعنى يعبر هذا القول عن إعتراض صريح ضد العلم ، لخطورة ما وصل إليه من تحقيق لنتائج كان من شأنها أن تلغي الثقافة الإنسانية، وتسيطر على حياة الإنسان.

---

[1] خالد قطب، مرجع سابق، ص 31.

[2] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقاداتها، إشكالية العلم بين الموضوعية والأيديولوجيا، مرجع سابق، ص 116.

[3] حياة مشاط، مرجع سابق، ص 291.

يرفض فيرابند القول بتفوق العلم عن باقي التقاليد الإنسانية الأخرى فهو لا يشكل أرقى أشكال المعرفة الإنسانية، وإنما يعتبر مجرد تقليد من بين تقاليد متعددة، فالعلم نشاط إنساني، مرتبط بالنشاطات الغير علمية يتفاعل معها، ويستفيد منها. [1]

إن العلم ليس معرفة مقدسة وجب الخضوع لها، فهو معرفة تعرضت للتصحيح والخطأ، والنقد عبر مراحل تطوره، حيث يقول: "إن العلم ليس نظاما مقدسا، يستلزم الكفر بما عداه، بل هو نظام عقلاني وجب أن ينمو ويزدهر وسط الأنظمة المعرفية الأخرى، إنه شكل من أشكال عديدة للمعرفة". [2]

أي أن العلم مثله مثل المعارف الإنسانية الأخرى، لا يتميز عنها بشيء من وجهة نظر فيرابند، لأنه يعد نمط من أنماط متعددة للمعرفة الإنسانية، ويمثل جزءا من إنجازات الإنسان ومعتقداته وثقافته .

وبناءا على ما سبق ذكره يأكد أن ما يدعو إلية فلاسفة العلم من إعتقاد حول أن العلم هو أرقى أنواع المعرفة ماهو إلا تقليد أعمى مبالغ فيه، فميدان العلم لا يختلف عن المعارف الإنسانية الأخرى، كالفن والأسطورة لأنها جميعها تقدم معرفة لا يمكن إنكارها، ولها قيمتها في البحث العلمي ، و لهذا لا يجب الحكم على أي نمط من أنماط المعرفة دون معرفته بشكل دقيق، فالقول بأنّها ليست علمية، هو حكم قائم على معتقدات خاطئة رسخها تقليد أعمى من قبل فلاسفة العلم. [3]

إن العلم هو نمط من أنماط المعرفة البشرية ، ولا يتعبر النمط الوحيد ، والسبيل لحل مشكلات الإنسان، على إختلافها وتنوعها، بإعتبار أن الأنماط الفكرية، والبدائل الأخرى كالدين والأسطورة والمعتقدات الشعبية، قد تكون هي الأخرى مصدرا وحلولا للمشاكل التي تواجه العلم.[4]

إن التمييز الذي تقيمه الإبستيمولوجيا العقلانية على النتائج التي يتوصل إليها العلم، لم تنجح في تأسيس معرفة علمية بالطريقة اللازمة، إذ يقول فيرابند: "إن أمثلة كوبرنيكوس النظرية

---

[1] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، ص 168 .

[2] يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مرجع سابق ، ص 119 .

[3] شادلي هواري، إشكالية تطور وأزمة المنهج، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2011، ص 128.

[4] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلميّة االمعاصرة وانتقاداتها، المرجع السابق، ص 180 .

الذرية ... والطب الصيني توضح أنه حتى أكثر النظريات تقدما ليست آمنة، ويمكن تعديلها أو استبعادها بمساعدة الآراء التي وضعها غرور الجهل بالفعل في سله مهملات التاريخ، بهذه الطريقة قد تصبح معرفة اليوم حكاية خيالية غدا، وقد تتحول أكثر الأساطير إثارة للضحك إلى أقوى جزء من العلم"[1].

أي أن معظم تلك النظريات التي يشهد لها التاريخ بتقدمها أغلبها تعرضت للنقد والتبديل والإستبعاد، وحلت محلها نظريات جديدة وهكذا، إذ أن المعرفة التي تنتجها الأساطير قد تكون أفكار مشتتة وغير علمية كما يتصورها فلاسفة العلم العقلانيين، إلا أنها إن وجدت الدعم والقبوول ستتحول إلى أقوى نظرية في العلم، وأهم جزء فيه، لأنها تحتوي على وجهات نظر متعددة ومتنوعة تفيد تقدم العلم .

يدافع فيرابند على أهمية المعارف الغير علمية التي كان لها دور في ظهور الكثير من النظريات العلمية، فالعلم يدين في تطوره لمثل هذه الأنماط المعرفية، فمثلا الطب يدين في تقدمه للقابلات والعرافين وبائعي الأدوية المتجولين، ولهذا فإن الإلتزام بقواعد منهجية ومبادئ صارمة لا توصلنا إلى الحقيقة، وإنما كل شيء يتحدد وينكشف بالممارسة التي قد تحتوي أسلوب بحث مغاير للأساليب المتعارف عليها داخل الأنساق العلمية. [2]

وبالتالي فإن التفتح على مختلف الممارسات الإنسانية هو الأسلوب الأفضل للتقدم، لا يحد من الإبداع والإبتكار، ويحقق الروح النقدية في العلم حيث يقول: "إن تنوع الآراء ضروري للمعرفة الموضوعية، والطريقة التي تشجع التنوع هي أيضا الطريقة الوحيدة التي تتوافق مع النظرية الإنسانية". [3]

إن المجتمع الإنساني يتوفر على أنشطة وتقاليد متعددة، فلا يمكن اختصار نشاطه فيما قوم به العلماء فقط، فالعلم يمثل نشاطا إنسانيا، ويعد جزء من النسق العام للنسيج الإجتماعي المتنوع، والدعوة إلى تميز العلم عن باقي هذه الأنشطة هو مجرد وهم، فليس للعلم أي ميزة

[1] شادلي هواري، إشكالية التطور وأزمة المنهج، مرجع سابق، ص 130 .

[2] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص، ص 169،171 .

[3] paul feyerabend , Against Method, Without Pubshing, house, Thind edition, without country, without a year, p 32 .

تجعله أفضل من السحر والشعوذة أو التنجيم، فهو ليس إلا تقليد من بين التقاليد الأخرى المتنوعة الموجودة في المجتمع. [1]

[1] شادلي هواري ، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 17.

المبحث الثاني: التعدد المعرفي "الفن، الدين، الأسطورة" ودورها في بناء العلم.

يرى فيرابند أن العلم لم يعد قادرا على تفسير الظواهر، وفهم النظريات العلمية، فلقد أخفق في حل مشاكل الإنسانية، وذلك يرجع إلى تمسكه بتلك القوانين المنطقية، والمعايير الصارمة التي تعرقل البحث العلمي، وتقيد فيلسوف العلم وتحد من تفكيره، ولقد أصبح العلم موضع شك من حيث مصداقيته ونتائجه ومناهجه، بعد أن كان أرقى أشكال المعرفة الإنسانية، لما كان يتميز به من دقة وموضوعية ووضوح، هذه الخصائص التي يتميز بها في نظر فيرابند جعلت منه نمط معرفي مقدس ، يخضع لقوالب جامدة، فالعلم نشاط إنساني يتطور ويزدهر وسط النشاطات المعرفية الأخرى، حيث يقول: "العلم هو أحد أروع إختراعات العقل البشري ، لكني ضد الأيديولوجيات التي تستخدم اسم العلم في قتل الثقافي" [1]، بمعنى يرفض كل تلك التيارات الفلسفية التي تحاول عقلنة الممارسة العلمية، وتدعوا إلى أن العلم أفضل أنواع المعرفة، ففيرابند لا يرى في العلم ما يمكن أن يميزه عن باقي أنماط المعرفة الأخرى، وإنما هو شكل من أشكال المعرفة الإنسانية المتعددة .

يذهب فيرابند إلى أن العلم لا يتمتع بأي ميزة، أو مكانة تجعله يتفوق على الأنشطة والفعاليات الفكرية الإنسانية المختلفة، فالعلم ليس له منهج خاص به يميزه عن أي نشاط فكري آخر أو يجعله يستحق درجة أكبر من الإحترام، بإعتباره يقدم معرفة حقيقية صادقة، حيث يقول: "تواجه فكرة وجود منهج علمي يتضمن مبادئ صارمة لا تتغير، وملزمة إلزاما مطلقا صعوبات جمة ... إذ لا توجد قاعدة واحدة مهما بدت ممكنة أو مستندة على أسس إبستيمولوجية راسخة إلا و تم تجاوزها في وقت من الأوقات" [2]، بمعنى أن العلم لا يقوم على مبادئ صارمة، لأن معارفه متنوعة ومتعددة لا تخضع لسيطرة المنهج، وهذا يظهر جليا في النظريات العلمية التي بالرغم من تقدمها العلمي إلا أنها خضعت إلى خرق هذه القوانين وتجاوزها، وهذا ما حقق لها التطور في الأوساط العلمية.

إن البحث الناجح لا يخضع للمعايير العامة، وإن نظرية العلم التي تضع المعايير والقواعد لجميع الأنشطة العلمية وترخصها بالرجوع إلى العقل والعقلانية قد تثير إعجاب العلماء لكنها

---

[1] Paul Feyerabend, Against Method, previous source, p4.

[2] بول فيراباند ، ثلاث محاورات في المعرفة ، مصدر سابق، ص 12.

أداة قاسية، لا تفيد تقدم العلم، وإنما تقيده بفرضها لمثل هذه القواعد الصارمة التي من شأنها أن تحد من إنتاجه الإبداعي وروحه النقدية، حيث يقول فيرابند: "هناك دائما تطورات ثم الإشادة بها من قبل أولئك الذين يدعمون القاعدة لكنها توضح ضرر القاعدة أكثر من نفعه".[1]

بمعنى أن هذه التطورات في فلسفة العلم تبين أنه لو لم يتم تجاوز هذه القواعد لكان من الصعب أن تتقدم أي نظرية علمية.

يرى فيرابند أنه لا توجد معايير أو مقاييس ترشد العلماء خلال مراحل إكتشاف النظريات العلمية وعلى الباحثين أن يتبعوا خيالهم أو ما يبدو لهم هاما ومثيرا فالتقدم العلمي هو إزاحة النظريات القديمة لتحل محلّها النظريات الجديدة، وإن هذا الأمر "يتطلب توفر عناصر لا عقلانية لايمكن تبريرها ، فالعالم الذي ينجح في إحراز أي تقدم، هو ذلك الذي يفكر بطريقة وأسلوب يخالف ما هو مألوف، ويتجاوز طرق التفكير والمبادئ السائدة حيث يقول: مهما بدت لنا قواعد المنهج التي يتشدق بها فلاسفة العلم ضرورية وأساسية فهناك دائما ظروف تستدعي ليس فقط تجاهل هذه القواعد وإنما تبني عكسها" [2]، أي أن مخالفة هذه القواعد ضرورية لتقدم العلم وإن هذا التجاوز للقوانين والمبادئ لا يضر تطوّره، ولا يعرقل البحث العلمي، بل هو ضرورة حتمية للتقدم.

يرى فيرابند أن الحقائق العلمية ليست مستقلة عن المعتقدات والخلفيات الثقافية، فالعلم في صميمه يمثل نشاط إنساني، ويعد تقليد من تقاليد معرفية متنوعة، فلا يمكن ربطه بقواعد صارمة، وإن دعم مثل هذا التقليد وإستبعاد كل شيء آخر هو مجرد هراء ، فالعلم لا يمكن فصله عن المعارف الإنسانية، لأنه جزء لا يتجزأ منها حيث يقول: "إن العلم مليء بالثغرات والتناقضات وإن الجهل والاستغراب ... بعيدا عن إعاقة المعرفة إلى الأمام قد يكون في الواقع ساعدها، وإن الفضائل التقليدية المتمثلة في الدقة والإتساق والصدق ... إذ مورست بحزم قد تؤدي إلى توقفها، لقد ظهر أيضا أن المبادئ المنطقية لا تلعب فقط دورا أصغر بكثير في الحركات الجدلية ... التي تقدم العلم، ولكن محاولة فرضها ستعيق العلم بشكل خطير"[3]، بمعنى أن العلم إذا خضع لهذه المفاهيم والمعايير سيؤدي ذلك إلى توقف نشاطه الإبداعي،

---

[1] Paul Feyerabend, Against Method, previous source, p1.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مرجع سابق، ص 12.

[3] Paul Feyerabend, Against Method, previous source, p197.

فإن تقييد الباحث بمثل هذه القواعد من شأنه أن يحد من مجال البحث العلمي ليصبح مقتصرا على مجال معين وعلى معرفة محددة وبالتالي سيعيق تقدم العلم .

إن العلم وجهة نظر واحدة من وجهات نظر متعددة، ليس هو السبيل الأوحد صوب الحقيقة والواقع، كما أن النتائج التي توصل إليها العلم في جميع مجالاته، لا تعطيه الأفضلية والتميز، ذلك لأنها تدين بشكل كبير إلى المعارف الغير علمية، التي هي من نتائج معارف إنسانية قديمة لا تنتمي إلى ميدانه، حيث يقول: "نحن نعلم أن الطب البدائي والطب الشعبي والأشكال التقليدية للطب في الصين، التي لا تزال قريبة الصلة برؤية الحس المشترك والإنسان والطبيعة، لديها في الغالب وسائل أفضل للتشخيص والعلاج من الطب العلمي، كما أننا نعلم أيضا أن الأشكال البدائية للحياة قد ساهمت في حل مشكلات الوجود الإنساني والتي تعتبر بعيدة المنال بالنسبة لمعالجة العقلانية"[1] ، أي هنا يدافع فيرابند على أهمية المعارف الإنسانية، لما تحمله من وجهات نظر، ومعارف قيمة لا يمكن لفلاسفة العلم إنكارها، فالمعتقدات الشعبية والخبرات الإنسانية هي التي حققت التطور للعلم، فهذا الأخير لا يمكنه أن ينقطع عن التاريخ الإنساني وعن الثقافة الإنسانية، التي تمثل منبعا لا ينضب لمشكلاته العلمية.

يرى فيرابند أنه يجب تدريس العلوم كوجهة نظر واحدة من بين العديد من وجهات النظر المختلفة والمتعددة، وليس الطريق الوحيد إلى الحقيقة، فلا يوجد شيء في العلم يستبعد المعارف الإنسانية، لأنه في نظره الأسطورة وعلم الشعوذة له نفس أهمية العلم ويتساوى معه، فيدافع ضد كل من أقام التمييز بين العلم والمعارف الغير علمية، وأشاد بحماس وجرأة على أهمية الأساطير في مقابل النظريات العلمية، حتى يزعم أنها أكثر صدقا وتقدما منها، حيث يقول: "إنجازات واضعي الأسطورة في العصور السابقة أفضل من إنجازات العلماء في كافة العصور وأن مخترعي الأسطورة الأوائل بدءوا الحضارة، بينما إكتف العلماء بتغييرها وليس إلى الأفضل دائما"[2]، أي يصرح في هذا القول على ضرورة المعارف الإنسانية كالفن والدين والشعوذة والأسطورة ويشيد بأن المعارف التي يمكن أن تقدمها لا تتوفر في المعارف العلمية وهذا ما يوضحه تاريخ العلم كما ذكرنا سابقا.

---

[1] بوصالحيح حمدان، إشكالية العلم بين الموضوعية والإيديولوجيا، مرجع سابق، ص، ص 114، 115 .

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مرجع سابق ، ص 31 .

يؤكد فيرابند على عدم التمسك بالقواعد الصارمة، وفي المقابل يدعوا إلى إيجاد بدائل متنوعة، حتى لو كانت لا تتوافق مع المناهج العلمية، لأن ذلك يفيد العلم ويجعل مصادره متنوعة، فتنوع وزيادة محيط البدائل يوسع مجال البحث العلمي، فيقتحم بذلك الكثير من المواضيع التي كان يعتقد أنها خارج الممارسة العلمية، لهذا يتوجب على العالم المنخرط في بحث معين أن يقوم بخرق معظم القواعد، حتى يزيد المحتوى الإمبريقي للآراء والتخمينات التي يقدمها، قصد فهمها بشكل واضح، وذلك لا يحصل إلا عندما يطبق التعددية المنهجيّة، التي تقوم على قبول جميع المعارف والنظريات دون تحيز، مادامت تقدم للعلم الحلول للمشاكل المطروحة" وإن التعددية المعرفية هي الأسلوب الأمثل في نظر فيرابند لتحقيق التقدم العلمي والمعرفي، وتفتح المجال للخيال والإبداع وتضع الباحث أمام خيارات متعددة، فالعقل المتفتح يعالج ويناقش قضايا متشعبة، وبإتباع أساليب بحث متنوعة تساهم في تقدم العلم ". [1]

يصرح فيرابند أن كل تقدم حاصل في العلم مثل إختراع الذرة في العصور القديمة والثورة الكوبرينيكية، حدث فقط لأن بعض العلماء أرادوا عدم الإلتزام بقواعد واضحة معينة، أو لأنهم خالفوها عن غير قصد، ولذا يمكننا القول أن ما يدافع عنه العلماء والباحثون في العلوم على أنه يشكل طريقة علمية موحدة، هي غير مجدية لأنها لا تنتج النتائج التي من المفترض أن تحققها حيث يقول: "لا يوجد إجراء واحد أو مجموعة من القواعد التي تشكل أساس كل بحث وتضمن أنه علمي وبالتالي جدير بالثقة ... فكرة طريقة عالمية ومستقرة غير واقعية ... لا توجد قاعدة واحدة مهما كانت معقولة وراسخة في الفلسفة إلا وتم إنتهاكها في وقت أو آخر". [2]

وعليه يرى أن الإيديولوجيات والممارسات، والنظريات والتقاليد الغير علمية يمكن أن تصبح منافسة قوية، تكشف عن نقاط الضعف في العلم إذا أعطيت فقط فرصة عادلة للمنافسة، فلقد أثبت الطب التقليدي طرق علاج وتشخيص تتفوق على أساليب الطب العلمي، وهذا يدل

[1] شادلي هواري، فلسفة اللامعقول، مرجع سابق، ص 177.

[2] Paul Feyerabend, Science in a Free society, printed in great butain by lowe of brydone ltd, thetford, norforlk, 1978, p,p 98,99.

على أن المعارف الغير علمية يمكن أن تقدم لنا ما يفيد نظرتنا للعالم، كما أنها تزودنا بالحلول للمشاكل المطروحة في العلم. [1]

يشير فيرابند على ضرورة فحص كل فكرة بكل تشعباتها، سواء كانت فكرة علمية أو غير علمية، ويجب إعطاء أي رأي كل الفرص التي يستحقها، لإظهار قدراتها وفضائلها، فلا يجب التخلي على النظريات وإستبدالها لمجرد أنها غير علمية، فالمعرفة يتم الحصول عليها من خلال تعدد وجهات النظر، وليس من التطبيق الوحيد لمبادئ صارمة، لأنه في ظل التنوع و التعدد المعرفي يتحقق الإبداع، وبالتالي يحصل التقدم في العلم: "إن تعدد النظريات ووجهات النظر الميتافيزيقية ليست مهمة فقط للمنهجية بل هي أيضا جزء أساسي من النظرة الإنسانية".[2]

[1] Paul Feyerabend, Science in a free society, same source, p 103.

[2] paul feyerabend, Against Method, previous source, p 38.

المبحث الثالث: رؤية تقييمية ونقدية لإبستيمولوجيا بول فيرابند

يعد فيرابند من أبرز الفلاسفة إثارة للخلاف في ميدان فلسفة العلم ، بل هو من أكثر الأشخاص الذين لقوا ردود فعل متباينة ومتعارضة في تاريخ الفلسفة برمته، فقد نال الثناء فإمتدحه البعض لتميز أفكاره وأطروحاته، بإعتباره فيلسوفا مجددا له رؤية ثاقبة متميزة، ومختلفة غير تقليدية في فلسفة العلم المعاصرة. [1]

ويعتبر أحد أهم المنظرين لفلسفة العلم الذي أثرى هذا الفرع المهم في الفلسفة ، فعلى مدى مسيرته المهنية، وبشكل استثنائي تحدى فيرابند العديد من الدوغمائيات الفلسفية والعلمية، وجادل ضد كل الإفتراضات والتصورات العقائدية حيث ما وجدها، ودافع عن أفكاره متحديا بذلك قراءه ومعاصريه، فلم يقبل الخضوع للأيديولوجيات السائدة في عصره لأنه يتبنى أفكار وآراء مخالفة لما هو سائد. [2]

وصف فيرابند بالفيلسوف المنفرد كونه قدم لنا تصورا يعدّ من أجرء التنظيرات الإبستيمولوجية التي عرفتها فلسفة العلم، وتظهر هذه الجرأة والتميز في بلورته لرؤى وأفكار، وأساليب جديدة تثور ضد كل التصورات والتنظيرات والفلسفات المعروفة في الأوساط العلمية[3]، لقد قدم طرح إبستيمولوجي متميز، كانت أفكاره و حججه مذهلة وجريئة ولافتة للنظر، ومن مميزات هذا الطرح أنه قام بدراسة العلم وإعادة صياغة أفكاره ليكون في طليعة الإتجاهات المعاصرة.[4]

لقد شكل النقد دورا هاما في فلسفة فيرابند، فأول خطوة في التعددية المنهجية هي نقد الأنظمة والتصورات والمفاهيم الثابتة في العلم، وفي مقابل ذلك وضع نسق تصويري جديد، يتعارض مع هذه المعايير والقواعد الراسخة، ومن هذا المنطلق النقدي وجه إنتقاداته للعقلانية المعاصرة، وللمناهج العلمية، فهو يشير إلى عدم فهمها لحقيقة التقدم العلمي، ولهذا من العبث رد العلم إلى بضع قواعد ميتيودولوجية. [5]

---

[1] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص5 .

[2] بول فيرابند، طغيان العلم، مرجع سابق، ص18 .

[3] نفس المصدر، ص 20

[4] نفس المصدر، ص 18

[5] خالد قطب، مرجع سابق، ص 45.

ولقد حاول فيرابند من خلال أطروحاته العلمية أن يحطم ذلك التصور الذي يجعل من العلم كيانا مقدسا، بعد طغيانه وسطوته على حياة الإنسان، وأثبت أن العلم الذي كان من قبل وسيلة للتفتح، أصبح اليوم أداة للقمع والإستبداد عندما أضحى يشكل إيديولوجيا، لقد تحول فيرابند من فيلسوف علم إلى فيلسوف إنساني، حينما وضع كينونة الإنسان وكرامته في صميم إهتمامه، فأراد بذلك أن يسترجع ذلك الجانب الروحي في الإنسان، الذي غلب عليه الميدان العلمي، فأعاد الإعتبار لجميع المعارف الإنسانية رافضا إمتياز العلم وإستبعاده للإنسان. [1]

إن التميز والإبداع الخلاق في فلسفة العلم عند فيرابند متمثل في نقله مصطلح الفوضوية من فلسفة السياسة إلى فلسفة العلم والإبستيمولوجيا، هذا المصطلح أدرجه فيرابند ضمن المصطلحات الفلسفية ليتحرر من كل القيود التي يخضع لها العلم، سواء كانت قيود علمية وإجتماعية، بهدف الوصول إلى حياة كاملة ذات قيمة. [2]

إن مصطلح الفوضوية الذي جاء به قد لا يكون جذابا للعديد من العلماء أو السياسيين أو حتى الإنسان المثقف العادي، إلا أنه يمثل دواءا ناجحا لنظرية المعرفة العلمية، لتخرج من قيودها والعراقيل التي وضعها فلاسفة العلم، حيث يقول أحد : "إننا أمام علم جديد يسمى بالفوضوية أو بالأحرى أمام وسائل تمكننا من أن نفهم بطريقة أفضل ، وفي إطار مختلف العلوم ... ". [3]

لقد جاءت فلسفة فيرابند معبرة عن نزعة إنسانية راقية، فلقد توفرت مقاربته الفلسفية على الإبداع والأصالة، والتميز ما لم نجده في مقاربات فلسفية أخرى، كونها فتحت المجال لإستبصارات وآفاق إبستيمولوجية جديدة في دراسة النظريات العلمية، وفي فهم سير منطق العلم. [4]

يعد موقف فيرابند من العلم والمنهج والعقلانية العلمية عموما من أكثر المواقف جرأة، وهذا لا نلاحظه عند العديد من فلاسفة العلم، الذين بحثوا في نفس المشكلات التي بحث فيها، لا كن هذا التصور لا يحالفه الصواب دائما، فقد أثارت أطروحته المتعلقة بالفوضوية والتعددية

---

[1] حياة مشاط، مرجع سابق، 285.

[2] خالد قطب، مرجع سابق، ص 43.

[3] المرجع نفسه، ص 40.

[4] حياة مشاط، مرجع سابق ، ص 284.

المنهجية، والنسبية نقاشا وجدلا كبيرا في الأوساط العلمية والفلسفية، لقد تبناها بعض الفلاسفة كونها قد رفضت بعض التصورات والمفاهيم التي سيطرت على الحقل الإبستيمولوجي لقرون مديدة، وقد رفضها البعض لأنها سعت إلى هدم كل الأسس العقلانية، دون أن تقدم بديلا يمكن أن يساهم في حل المشكلات المطروحة في العلم.[1]

لقد إنتقد الكثيرون فلسفة فيرابند عن علم ودراية، أو عن جهل باعتباره ألدُّ أعداء العلم، فرفضوا أفكاره لأنه في نظرهم ليس سوى مشعوذًا يدعوا إلى الظلام والتخلف، لقد تم نقده لنزعته السلبية ولعباراته النقدية اللاذعة، وإن فيرابند نفسه يتردد كثيرا ويعارض أفكاره التي صرح بها من قبل، ويصف نفسه بصفات وسرعان ما يخالفها، فمرة نراه يقول بأنه فوضوي وتارة أخرى نسبي، ثم يصرح أحيانا بأنه لا هذا ولا ذاك، ويدافع من جهة أخرى على علم التنجيم، ثم يعود ليقول أنه أكثر ما يشعره بالملل هو التنجيم، إنّ هذا التغير في المواقف يصعب فهم فلسفته، ومن ثم لا يسهل علينا تصنيفه لأي فكر ينتمي، لأن معظم مؤلفاته لا يستقر فيها على مبدأ معين أو فكرة محددة، وإنما تجده يدافع في بعض مؤلفاته عن فكرة ما، ثم يعود ليهاجمها وينتقدها.[2]

إن تغير موقف فيرابند الدائم وطريقته الحادة في الحوار واستعماله للنقد اللاذع، قد زاد من سوء تفسير فلسفته، وبالفعل قد أسيء إستخدام جوانب من فلسفته فلاقت أطروحاته العلمية رفضا وهجوما كاسحا من قبل فلسفات العلم المعاصرة. [3]

[1] بوصالحيح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وإنتقاداتها، مرجع سابق، ص 179.

[2] بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، مصدر سابق، ص، ص5، 24.

[3] بول فيرابند، طغيان العلم، مصدر سابق، ص، ص 20، 21 .

ونخلص في الأخير إلى القول أن ما شهدته فلسفة العلم المعاصرة من تحولات عميقة على جميع المستويات العلمية والفلسفية، أدت إلى إعادة النظر في قيمة العلم ومدى قدرته على التعامل مع مستجدات العصر وتحدياته، فلم يعد العلم ذلك النموذج المقدس الذي يقتدي به، فلقد أخفق العلم في تفسير النظريات العلمية وحل المشاكل الإنسانية لذا أصبح من الضروري فتح المجال أمام جميع التقاليد والأنشطة المعرفية الأخرى للمشاركة في عملية النمو والتطور، وهذا يكون وفق إتباع منهجية التعدد المعرفي التي تقدم نظريات وبدائل متنوعة ووجهات نظر مختلفة من شأنها أن توسع نطاق البحث العلمي وتفيد تقدم العلم.

خاتمة

خاتمة:

قادني البحث حول إبستيمولوجيا التعدّديّة المنهجيّة عند بول فيرابند إلى جملة من النتائج، نلخّصها في النقاط الأساسيّة التاليّة:

إنّ أوّل ما يمكن الإشارة إليه أن مهمّة إبستيمولوجيا العلم هي دراسة المعرفة، دراسة نقديّة علميّة من كل جوانبها، فقد شهدت الإبستيمولوجبا المعاصرة لحظة تحوّل حاسمة في تارخ فلسفة العلم، أخذت منحى مخالفًا لما ذهبت إليه الأنساق الكلاسيكيّة السابقة، المهتمّة بدراسة إبستيمولوجيا المنهجية، هذه الأنساق لإنتقادات لاذعة حيث تم تقويض وزعزعت مفاهيمها والتصّوّرات القائمة عليها خاصّة فيما دعت إليه بمفهوم المنهج ووحدته.

ولهذا فالتعدّديّة المنهجيّة التي دعا إليها فيرابند في فلسفة العلم المعاصرة، أسّست لتنظيرات إبستيمولوجيّة جديدة، وفتحت آفاق في إبستيمولوجيا العلم، منتقدة بذلك كل الميتودولوجيّات العلميّة، لأنّه ليس هناك قواعد ومعايير ثابتة راسخة يقوم عليها العلم، فالتعدّيدة هي الأسلوب الأفظل والأجدر لأن تقوم عليه العلوم.

يعد بول فيرابند نموذجًا لسيادة للروح النقدّية في فلسفة العلم، فلقد كان النقد لبّ فلسفته ومبحثها الأساسي، الذي إعتمد عليه في تناوله لقضيّة المنهج والعلم واللاعلميّة، حيث قام بنقد كل العقلانيّات العلميّة المعاصرة، بداية من "التجريبيّة المنطقيّة" ورفض كل المبادئ والقوانين التي تقوم عليها، مرورًا بالعقلانيّة النقديّة "لكارل بوبر"، ودحض مبدأ التكذيب التي تقوم عليه، فالنظريّات العلميّة لاتستبعد إذا لم تصْمد أمام إختبارات العلم، بل يتمّ إستبقائها حتّى تثبت قدراتها العلميّة، وصولا بذلك إلى ميتودولوجيا كل من "توماس كون" و"إمري لاكاتوس"، اللّذان لم يسلما من المراجعة النقدية كسابقيهم.

يرى فيرابند أن العلم يقوم على التنّوع والتعدّد في النظريّات العلميّة، فكلّ نظريّة سواء كانت قديمة أو جديدة، علميّة أو غير علميّة، لديها القدرة على إثبات مدى فاعليّتها، إذ ما قام العلماء بإعطاء فرصة لها لإثبات نفسها في المجال العلمي.

إنّ تعدّد النظريّات والتنوّع في محيط البدائل المعرفيّة ضروري للعلم، لأنّه كلّما ساد الإختلاف والتنوّع والتناقض في النظريّات العلميّة، كلّما زاد تقدم في العلم.

إنّ دعوته للفوضويّة المنهجيّة والتعدّديّة المعرفيّة، يدلّ على نسبيّة المعرفة العلميّة، فالمعرفة في نظره نسبيّة لأنّ العقل الإنساني لايحيط بكل شيء، فليس كلّ ما يطرحه العلم متاح، وكلّ ما هو متوفّر وجهات نظر مختلفة، قد تكون صادقة من بعض الجهات فقط.

وقول فيرابند بإبستيمولوجيا الفوضى والتّعدّد، لا يعنيّ أنّه ضد المنهج، وإنّما هو ضدّ فكرة إستحدام منهج واح ووحيد تسير وفقه العلوم، لأنّه يعتقد أن جيمع المناهج متاحة، ومفيدة مادامت تقدّم حلولا للمشاكل المطروحة في العلم.

لقد أكّدت الأبعاد الإبستيمولوجيّة لفلسفته، أنّ العلم ماهو إلاّ تقليد من بين تقاليد متعدّدة للمعرفة الإنسانيّة، ولا يمثّل النمط الوحيد للكشف عن الحقيقة، فليس هناك مفاضلة بين العلم واللاعلم، لأنّه نشاط إنساني يتفاعل مع كل ما هو إجتماعي وثقافي، وديني وغيرذلك من أنماط المعرفة.

وبهذا كان التعدّد المعرفي له دور هام في بناء العلم وتقدّمه، فالتعدّد في المعرفة هو السبيل الأمثل للتّقدّم العلمي، وذلك لأنّ النظريّات العلميّة التي نتوصل إليها من خلال التمثلات الإنسانية دليل على أن العلم في تقدّم مستمر، فهذا الأخير لايمكن بلورته خارج نطاق كل ما هو إنساني.

ويمكن القول أنّ الطرح الإبستيمولوجي لبول فيرابند حول منهج العلم، يعدّ من أجر التنظيرات التي شهدها تاريخ الفلسفة عامّة وفلسفة العلم خاصة، لأنّه قدّم تصوّرات ومفاهيم جديدة، لم تعرف لها مثيل إبستيمولوجيا العلم المعاصرة.

إنّ فلسفة بول فيرابند فلسفة إنسانيّة متميّزة تدعوا إلى الحريّة الفكريّة والإبداع، إلاّ أنّه رغم ما تتميّز به من أفكار جريئة، لا ينفي ذلك ما تعرّضت له من نقد ورفض في الأوساط العلميّة والفلسفيّة، فالتوجّهات العلميّة المعاصرة ترى في العلم أنّه أرقى أشكال المعرفة الإنسانية،

ونتيجة لتضارب المواقف فقد رفضها البعض لأنها عملت على تقويض مفاهيم العلم والعقلانيّة، كما أن دعوة بول فيرابند لجعل الأسطورة والسحر، والفن والدّين في نفس مرتبة العلم أمر غير معقول، فلا يمكن أن نتأكّد من صحّة المعرفة العلميّة إنطلاقًا من تكهنات وأوهام ميتافيزيقيّة.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع:

أ) المصادر:

1) المصادر باللّغة العربيّة:

1) بول فيرابند، العلم في المجتمع الحر، تر: السيد نفادي، المجلس الأعلى للثقافة، د(ط)، د(ب)، 2000.

2) بول فيرابند، ثلاث محاورات في المعرفة، تر: محمد أحمد السيد، منشأ المعارف الإسكندرية، د(ط)، د(س).

3) بول فيرابند، طغيان العلم . ما العلم ؟ وما حدوده و أدواته ؟ تر: مركز دلائل مراجعة عبد الله الشهري، المملكة العربيّة السعوديّة، ط1، 2017.

2) المصادر باللّغة الأجنبيّة:

1) paul feyerabend , Against Method, Without Pubshing, house, Thind edition, without country, without a year.

2)Paul Feyerabend, Science in a Free society, printed in great butain by lowe of brydone ltd, thetford, norforlk, 1978.

ب) المراجع:

1) إبراهيم خليل إبراش، المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية، دار الشروق للنشر، ط1، عمان، 2009.

2) أليكس روزنبرج، فلسفة العلم مقدمة معاصرة، تر: أحمد عبد الله السماحي وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2019.

3) تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، تر: نجيب الحصادي، الجزء الأول "من حرف أ إلى حرف ط"، المكتب الوطني للبحث والتطوير، د(ط)، د(ب)، د(س).

4) توماس كون وآخرون، مقالات نقدية في تركيب الثروات العلمية، ترجمة ماهر عبد القادر محمد علي، دار المعرفة الجامعية، د طن الإسكندرية، 2000.

5) توماس كون، بنية الثورات العلمية، تر: شوقي جلال، عالم المعرفة، د ط، د ب، 1992.

6) جان بياجيه، الإبستيمولوجيا التكوينية، ترجمة السيد نفادي، دار التكوين، د (ط)، دمشق، 2004.

7) جون كوتنهام، العقلانية، مركز الإنماء الحضاري، ط1، حلب، 1997.

8) حميد لشهب، دائرة فيينا الوضعية المنطقية ونشأتها، المركز الإسلامي لدراسات الإستراتيجية، ط1، بيروت، 2019.

9) خالد قطب، التعددية المنهجية، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 2008، ص 13-14.

10) رجب بودبوس، الفوضوية، معهد الإنماء العربي، ط1، د (ب)، 1989.

11) رولان أومنيس، فلسفة الكوانتم "فهم العلم المعاصر وتأويله"، عالم المعرفة، د(ط)، الكويت، 2008.

12) رونيه ديكارت، مقال عن المنهج، تر: محمود محمد الحصيري، المطبعة السلفية ومكتبتها، د(ط)، القاهرة، 1930.

13) ستاتس بسيلوس، فلسفة العلم من الألف إلى الياء، المركز القومي للترجمة، د(ط)، قاهرة، 2018.

14) عبد القادر بشته، الإبستيمولوجيا "مثال فلسفة الفيزياء النيوتنية"، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1995.

15) عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، د(ط)، القاهرة، 1968.

16) فاطمة يونس محمد يوسف فلسفة العلم عند كارل بوبر، دار العالم العربي، ط1، القاهرة، 2015.

17) فريديريك كوبلستن، تاريخ الفلسفة: المجلد الرابع "الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى ليبنتز" تر: سعيد توفيق محمود سيد أحمد وآخرون، المركز القومي للترجمة، ط1، د(ب)،2013.

18) كارل بوبر، بحث عن عالم أفضل، تر: أحمد مستجير، مكتبة الأسرة، د(ط)، د(ب)، 1999.

19) كارل بوبر، بؤس الايديولوجيا "نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي، دار الساقي، ط1، د(ب)، 1992، ص 136.

20) كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي "دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية"، تر: عبد الحميد صبرة، دار المعارف، د(ط)، الإسكندرية، 1959.

21) ماهر عبد القادر محمد علي، فلسفة العلوم المشكلات المعرفية، دار المعرفة الجامعية، ط 2، د (ب)، 2000.

22) محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم " العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي"، مركز درجات الوحدة العربية، ط 1، بيروت، 1976.

23) محمد محمد قاسم، كارل بوبر نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، د(ط)، الإسكندرية، 1986.

24) محمد محمود الكبيسي، فلسفة العلم ومنطق البحث العلمي، بيت الحكمة، د(ط)، بغداد، 2009.

25) محمد وقيدي، ما هي الإبستيمولوجيا، مكتبة المعارف، ط2، الرباط، د(س).

26) ناصر هشام محمد، مدخل إلى فلسفة العلوم، دار الجوهرة، ط 1، القاهرة، 2015.

27) نعيمة ولد يوسف، مشكلة الاستقراء في إبستمولوجيا كارل بوبر، دار الروافد الثقافية، ط1، لبنان، 2015.

28) يمنى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة، مؤسسة الهنداوي، د(ط)، القاهرة، د(س).

29) يمنى طريف الخولي، مفهوم المنهج العلمي، مؤسسة الهنداوي، د(ط)، د(ب)، 2015.

ج) المجلات والمقالات:

1) توفيق بن وهلة، مقالة في اللامنهج مقاربة بول فيرابند، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، مجلد 16، العدد 02، جامعة سطيف 2، الجزائر، 2019.

2) بوصالحيح حمدان، إشكالية العلم بين الموضوعية والإيديولوجيا في فلسفة "بول فيرابند"، مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية، المجلد 1، العدد 1، جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر، 2013.

4) حياة مشاط، الظاهرة العلمية عند بول فايراباند، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مجلد 13، عدد 01، جامعة حسيبة بوعلي بالشلف، الجزائر، 2021.

د) المذكرات والأطروحات:

1) بوصاليح حمدان، العقلانية العلمية المعاصرة وانتقاداتها "بول فايرابايند" نموذجا، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة وهران، 2014.

2) شادلي هواري، فلسفة اللامعقول عند فايرابايند، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة وهران، 2017.

3) شادلي هواري، إشكاليّة تطوّر العلم وأزمة المنهج، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير، كليّة العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2010، 2011.

و) المعاجم والموسوعات:

1) أندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول A–G، منشورات عويدات، ط2، بيروت، 2001.

2) جلال الدين السعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب، د (ط)، تونس، 2004.

3) جمبل صليبا، المعجم الفلسفي، الجزء الثاني من (ط) إلى (ي)، دار الكتاب اللبناني، د(ط)، بيروت، 1982.

4) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، د(ط)، القاهرة، 2007.

5) مصطفى حسيبة، المعجم الفلسفي، دار أسامة للنشر، ط1، الأردن، 2009.

الملخص

ملخّص:

إنّ المقاربة الإبستيمولوجيّة التي قدّمها بول فيرابند المتمثّلة في "الإبستيمولوجيا التعدديّة المنهجية" سلّطت الضوء على قضية المنهج والعلم، فأثارت بذلك جدالا واسعًا في الأوساط الفلسفيّة والعلميّة، خاصّة بتقويضها لمفهوم المنهج العلمي وإخضاعه للمراجعة النقديّة، فالعلم في نظره لا يقوم على منهج واحد ووحيد، وإنّما تسري فيه مناهج متعددّة، وبنيات معرفيّة متنوّعة كالأسطورة والدّين والفن، رافعًا بذلك الطّابع التقديسي للعلم معتبرًا إياه مجرّد نشاط إنساني يتفاعل مع كل ماهو ثقافي وإجتماعي.

الكلمات المفتاحيّة:

الإبستيمولوجيا، التعدديّة المنهجيّة، المنهج العلمي، الأسطورة، المراجعة النقديّة، نشاط إنساني.

Abstract:

The epist emological approach presented by Paul Feyerabend represented in the “methodological pluarastic epistemology” sheds light on the issue of method and science, thue raising a wide debate in philosophical and scientific circles, especkally by undermining the concept of the Scientific method and subjecting it to critical review. Rather, multiple approaches and various cognitive structures apply in it such as myth, religion and art, thus raising the sacred nature of science, considering it a mere human activity that intheracts with all that is cultural and social.

Keywords: Epistemology, methodlogical pluralism, scientific method, myth, critical review, Human tiarian activity.